

تسليّة المؤمنين بهوان مُصيبته

الدنيا عند سلامة الدين

تصنيف:

الصغيرين عمار

-غفر الله له ولوالديه-

النسخة الأولى

1440

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### المقدمة

الحمد لله الذي هانت به كُلُّ المِحْنِ، وصَلَّى اللهُ وسلَّمَ على الذي كانت بعثته من أَجَلِ المِنَنِ، وموئته مصيبةً هبَّت بعدها رياحُ الفِتَنِ، وعلى آله وأصحابه أولي الصبر والسلامة من كل شبهة أو شك ودَرَن. أما بعد،

فهذه كلمات مختصرة في موضوع مهم للغاية، في ذكره سُلوَة لكل محزون، وعبرة لكل قلب مكلوم، وهو بيان أن مصائب الدنيا - وإن جَلَّتْ - فإنها هَيْئَةٌ إذا سَلَّمَ الدين، واستقامت الأحوال، ورضي رب العالمين.

وسميت هذه الرسالة: «تسليّة المؤمنين بهوان مُصيبةِ الدنيا عند سلامة الدين».

### الداعي إلى تأليف الكتاب

وأما عن سبب الكتابة في هذا الموضوع، فهو راجع إلى أمور:

- منها: التقرب إلى الله تعالى بنصح المسلمين وتذكيرهم.
- ومنها: تسليّة المؤمنين الذين أَنهَكهم البلاء، وأزَقهم الحزن على ما فات من الدنيا، وأن سلامة الدين هي السعادة الحقيقية، التي من حُرْمها حُرْم كل الخير، ولو أصابته صنوفٌ من الأذى والقلق والضير.
- ومنها: أني لم أر رسالةً مستقلة في هذا الموضوع على أهميته.
- ومنها: قلة العناية بعلم السلوك عند المتأخرين، مقارنة بالتصنيف في سائر العلوم.

• ومنها: أنه قد اجتمعت لدي عدة فوائد في الباب، بعضها مبثوث في كتبي، وبعضها كان في ملف مستقل، فاستخرت الله في جمعها في موضع واحد تحت هذا العنوان. والكتابة في علم السلوك أمر مهم لطالب العلم، لأنّ هذا الدين مبني على مراتبٍ ثلاثة:

الإسلام، وعليه مدار الفقه، إجمالاً.

والإيمان، وعليه تنبني أصول العقيدة.

والإحسان، وعليه مدار السلوك وما ينبغي أن يكون عليه المؤمن من أعمال القلوب.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ<sup>(1)</sup>: «والعلم الممدوح هو الذي ورّثه الأنبياء، وهذا العلم ثلاثة أقسام:

الأول: علم بأسماء الله وصفاته وما يتبع ذلك، وفي مثله أنزل الله «سورة الإخلاص» و «آية الكرسي» ونحوهما.

والثاني: العلم بما أخبر الله تعالى به مما كان من الأمور الماضية ومما يكون من المستقبل وما هو كائن من الأمور الحاضرة، وفي مثله أنزل الله القصص والوعد والوعيد وصفة الجنة والنار.

والثالث: العلم بما أمر الله به من الأمور المتعلقة بالقلوب والجوارح، من الإيمان بالله، ومن معارف القلوب وأحوالها، وأحوال الجوارح وأعمالها، وهذا يندرج فيه العلم

1- «المستدرک علی مجموع الفتاوی» (1/12).

بأصول الإيمان، وقواعد الإسلام، والعلم بالأقوال والأفعال الظاهرة مما هو في كتب  
الفقه». انتهى.

وإلى هذا أشار ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ بقوله<sup>(1)</sup>:

والعلم أفسأَمُّ ثَلَاثٌ مَا هَا  
علمٌ بأوصافِ الإِلَهِ وَفِعْلِهِ  
وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ الَّذِي هُوَ دِينُهُ  
وَالكُّلُّ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ التِّي  
وَاللَّهُ مَا قَالِ أَمْرٌ وَتَحَذِّقُ  
مِن رَابِعٍ وَالْحَقُّ ذُو تَبَيَانٍ  
وَكذلكَ الأَسْمَاءُ لِلدِّيَانِ  
وَجَزَاؤُهُ يَوْمَ المَعَادِ الثَّانِي  
جَاءتْ عَن المَبْعُوثِ بِالفُرْقَانِ  
بِسِوَاهُمَا إِلَّا مَن الهِذْيَانِ

والمتممُّ في الكتب المصنفة في اعتقاد أهل السنة والجماعة يجدُّ أنَّ من المسائل المودعة  
فيها: أخلاق أهل السنة وصفاتهم التي تحلَّوا بها: من العبادة، واحتقار النفس،  
والعمل الصالح، والإحسان إلى الخلق، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة، والأوصاف  
المجيدة.

وبهذا يجمعُ أتباعُ السلف بين الهدى، وهو العلم النافع، ودين الحق، وهو العمل  
الصالح، لأنَّ دينَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعة ليس عقائدٌ قلبيةٌ فحسب، بل دينُ أهلِ السُّنَّةِ  
والجماعة هو: عقائدٌ قلبيةٌ، وحقائقٌ إيمانيةٌ، تبدُّوا على الجوارح والأركان.<sup>(2)</sup>

1- «شرح النونية» (2/ 243)، للهراس رَحِمَهُ اللهُ.

2- وقد تكلمت عن هذا في كتابين: «واسع المنة بالتعليق على شرح السنة»، و«نهج الاقتصاد شرح حائية  
الاعتقاد»، نفع الله بهما كاتبًا ومن قرأ.

وانطلاقا من هذه النظرة الشمولية للدين، كتبتُ -بفضل الله- بعض الرسائل في السلوك وأعمال القلوب، منها:

- «شرح منظومة السير إلى الله والدار الآخر» للعلامة ابن سعدي.
- و«شرح قصيدة أنا الفقير» لشيخ الإسلام ابن تيمية.

والله أسأل أن يلطف بنا، وأن يرزقنا العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا، وأن يجعل أعمالنا لوجهه خالصة، ولسنة نبيه موافقة، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلّم.

وكتب: الصغير بن عمّار

ظهر الأحد 24 من ذي الحجة لعام 1440،

الموافق لـ 25 أوت 2019، بمدينة «ليون» بفرنسا

## الحياة مبنية على الابتلاء

إِنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْخَلْقِ هُوَ تَحْقِيقُ عِبُودِيَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فابتلاهم بالعبادة التي فَطَرَهُمْ عَلَيْهَا، وَبَعَثَ إِلَيْهِمْ بِهَذَا رِسَالَهُ، وَأَنْزَلَ بِرَحْمَتِهِ عَلَيْهِمْ كِتَابَهُ، فَاتَّضَحَّتْ بِهَذَا الْمَحَجَّةِ، وَقَامَتْ عَلَى النَّاسِ بِذَلِكَ الْحُجَّةِ، ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥]، فَانْقَسَمُوا إِلَى شَقِيٍّ وَسَعِيدٍ، وَمَقْرَبٍ وَطَرِيدٍ.

قال العلامة ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ<sup>(1)</sup>: «فزيغ الزائغين عن طاعة الله تعالى انحراف منهم عن الفطرة التي فطروا عليها، وهم في انحرافهم متفاوتون، فالضالون الذين أشركوا بالله فجعلوا له أندادا، والعصاة الذين لم يخرجوا عن توحيدِهِ، ولكنهم ربما خالفوا بعض أوامره قليلا أو كثيرا، هم في ذلك آخذون بجانب من الإباق متفاوتون فيه». انتهى.

وقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [الأعراف: ٢٩ - ٣٠]، وهذه آية جامعة<sup>(2)</sup> جمعت:  
أصول الشرائع الواجبة، وأعظمها إخلاص الدين لله.

1- «التحرير والتنوير» (82 / 21).

2- كما قال العلامة ابن سعدي في «مجموع الفوائد واقتناص الأوابد» (ص 17).

ومصير الخلق، وأنهم عائدون إلى الله يوم القيامة كما بدأهم في الدنيا،  
وانقسامهم بعد نفاذ قدر الله فيهم - إلى فريقين: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

والعبد في هذه الدنيا يسير إلى الله تعالى بقلبه يقطع مفاوز الآخرة حتى يصل إلى ربه.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ<sup>(١)</sup>: «فالمؤمن في الدنيا يسير إلى ربه حتى يبلغ إليه، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

قال الحسن: يا قوم المداومة المداومة، فإن الله لم يجعل لعمل المؤمن أجلاً دون الموت، ثم تلا هذه الآية...». انتهى.

فإذا سار القلب إلى الله، وانقطع إليه، تقيّد بحبّه، وصار في وثاق العبودية، فلم يبق له مفرّج في النوائب، ولا ملجأ غيرّه، ويصير عدّته في شدّته، وذخيرته في نوائبه، وملجأه في نوازله، ومستعانه في حوائجه وضروراته.<sup>(٢)</sup>

وعليه، فإن الوصول إلى الله نوعان:

أحدهما: في الدنيا.

والثاني: في الآخرة.

1- «المحجة في سير الدُّجّة» ضمن «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب» (1/ 442).

2- «شرح منظومة السير إلى الله» (ص 9)، لابن سعدي رَحِمَهُ اللهُ.

فأما الوصول الدنيوي فالمراد به: أن القلوب تصل إلى معرفته، فإذا عرفته أحبته، وأنست به، فوجدته منها قريبا ولدعائها مجيبا.

وأما الوصول الأخروي: فالدخول إلى الجنة التي هي دار كرامة الله لأوليائه. ولكنهم في درجاتهم متفاوتون في القرب بحسب تفاوت قلوبهم في الدنيا في القرب والمشاهدة.<sup>(1)</sup>

فإنَّ اللهَ تعالى يُري عبده في قَطْعِ مَسَافَةِ سَفَرِهِ آيَاتٍ يُرْسِلُهَا تَخْوِيفًا لِعِبَادِهِ، لئلا يَمِيلُوا عن طَرِيقِهِمُ المَسْتَقِيمِ، وَتَهْجِئِهِمُ القَوِيمِ، فَمَنْ مَالَتْ به راحِلَتُهُ عن طريق الاستقامة، فرأى ما يَخَافُ منه، فليَرْغَبْ إلى الله بالرجوع إليه عمَّا ارتكبه من السُّبُلِ، فيتوبَ من مَعْصِيَتِهِ، وَيَبْكِي من قَسْوَتِهِ، فإذا انتبه من رَقْدَةٍ كَسَلِهِ، عَلِمَ أنَّ الدنيا دارٌ عُرُورٌ طُبِعَتْ على كَدَرٍ.<sup>(2)</sup>

طُبِعَتْ على كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا صَفْوًا مِنَ الْأَقْدَارِ وَالْأَكْدَارِ  
الحياة بين منزلتي الشكر والصبر

العبد في حياته إنما هو ماض إلى الله تعالى، وفي هذا الطريق يمر بمنازل لن يدخل الجنة حتى يقف بها.

ومن ذلك منزلة الشكر ومنزلة الصبر، لأنَّ العبدَ في هذه الدار يتنقل بين:

• نِعَمٍ من الله تعالى تترادف عليه، قِيدُهَا الشكر.

1- «المحجة في سير الدُّجَّة» ضمن «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب» (1/ 447-448) باختصار.

2- بتصرف من «تسليية أهل المصائب» (ص 247)، للمنبجي رَحْمَةُ اللَّهِ.

• ومِخَنٍ من الله تعالى يبتليه بها، فَرَضَهُ فِيهَا الصَّبْرَ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ<sup>(1)</sup>: «فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِمَ يَبْتَلِيهِ لِيُهْلِكَه، وإنما ابتلاه ليمتحن صبره وعبوديته، فإن لله تعالى على العبد عبودية السراء، كما له عبودية في الضراء، وله عليه عبودية عليه فيما يكره، كما له عبودية فيما يحب، وأكثر الخلق يُعْطُونَ الْعِبُودِيَّةَ فِيمَا يَحِبُّونَ، وَالشَّأْنَ فِي إِعْطَاءِ الْعِبُودِيَّةِ فِي الْمَكَارِهِ، ففِيهَا تَفَاوُتٌ مَرَاتِبِ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا، وَعَلَيْهَا تَفَاوُتٌ مَرَاتِبُهُمْ فِي الْآخِرَةِ». انتهى.

والناس كما قال الحسن البصري: «كانوا يتساوون في وقت النعم، فإذا نزل البلاء

تباينوا»<sup>(2)</sup>.

ومن شعر أبي الطيب المتنبي:

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفتقر والإقدام قتال

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ<sup>(3)</sup>: «والإيمان القوي يبين أثره عند قوة البلاء». انتهى.

وقال زياد بن عمرو<sup>(4)</sup>: «كلنا نكره الموت وألم الجراح، ولكننا نتفاضل بالصبر».

وهذا ارتفع أولياء الله المتقون، الَّذِينَ فَعَلُوا الْمَأْمُورَ، وَتَرَكَوا الْمَحْظُورَ، وَصَبَرُوا عَلَى

الْمَقْدُورِ، فَأَحَبَّهُمُ اللهُ وَأَحَبُّوهُ، وَرَضِيَ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ.<sup>(5)</sup>

1- «الوابل الصيب» (ص 5).

2- انظر: «اليقين» (13)، لابن أبي الدنيا.

3- «صيد الخاطر» (ص 200).

4- رواه ابن أبي الدنيا في «الصبر والثواب عليه» (50).

5- «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (ص 151).

ولهذا، بعد أن أمر الله بذكره وشكره في قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، قال بعدها: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، الآيات في الصبر.

قال العلامة الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ<sup>(١)</sup>: «لما فرغ سبحانه من إرشاد عباده إلى ذكره وشكره، عقب ذلك بإرشادهم إلى الاستعانة بالصبر والصلاة، فإنَّ مَنْ جَمَعَ بَيْنَ ذِكْرِ اللَّهِ وَشُكْرِهِ، وَاسْتَعَانَ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ عَلَى تَأْدِيَةِ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَدَفَعَ مَا يَرِدُ عَلَيْهِ مِنَ الْمِحْنِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى الصَّوَابِ وَوُفِّقَ إِلَى الْخَيْرِ، وَإِنَّ هَذِهِ الْمَعِيَةَ الَّتِي أَوْضَحَهَا اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ فِيهَا أَعْظَمَ تَرْغِيبَ لِعِبَادِهِ سَبْحَانَهُ إِلَى لَزُومِ الصَّبْرِ عَلَى مَا يَنْبُؤُ مِنَ الْخُطُوبِ، فَمَنْ كَانَ اللَّهُ مَعَهُ لَمْ يَخْشَ مِنَ الْأَهْوَالِ». انتهى.

ومن تأمل اختبار الله تعالى لعباده وجده تارةً يكون بالمسارِّ ليشكروا، وتارةً بالمضارِّ ليصبروا. فصارت المنحة والمحنة جميعاً بلاءً. فالمحنة مقتضية للصبر، والمنحة مقتضية للشكر، والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر، فصارت المنحة أعظم البلاءين.<sup>(٢)</sup>

1- «فتح القدير» (1/183).

2- بتصريف من «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» (2/274)، للعلامة الفيروزآبادي رَحِمَهُ اللهُ. واستفدت هذا النقل من محقق كتاب «الفتن والبلايا والمحن والرزايا»، للعز بن عبد السلام رَحِمَهُ اللهُ.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ<sup>(1)</sup>: «فإن فتنة السراء أعظم من فتنة الضراء، وفي الحديث: «أعوذُ بك من فتنة الفقر، وشرِّ فتنة الغنى»<sup>(2)</sup>.

ولهذا كان أكثر من يدخل الجنة المساكين، لأن فتنة الفقر أهون، وكلاهما يحتاج إلى الصبر والشكر، لكن لما كان في السراء اللذة، وفي الضراء الألم، اشتهر ذكر الشكر في السراء، والصبر في الضراء». انتهى مختصراً.

قال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «بُلينا بالضراء فصبرنا، وبُلينا بالسراء فلم نصبر»، وقال علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «من وسَّع عليه في دنياه، فلم يعلم أنه قد مُكِر به، فهو مخدوع عن عقله»، والله يقول: ﴿وَنَبَلُوكُمْ بِالْأَشْرِّ وَالْخَيْرِ فَتَنَّاكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٥].<sup>(3)</sup>

1- «الحسنة والسيئة» (ص 73).

2- هذا سياقه مختصراً، وهو عند البخاري (6377)، ومسلم (589).

3- انظر: «بصائر ذوي التمييز» (2/ 274).

## منزلة الصبر من الدين وفوائد الابتلاء للمسلمين

لا يخفى على كل مسلم ما جعل الله لمنزلة الصبر من درجة عليّة، ولأهله من المنح الإلهية، وفي التنزيل: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، والبُشْرَى أَنْ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٍ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّهَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧]، أي: ثناءً وتَنْوِيهً بحالهم ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ عظيمة، ومن رحمته إياهم، أن وفّقهم للصبر الذي ينالون به كمال الأجر<sup>(1)</sup>، وسبب ذلك أنهم سلّموا لله، وحبّسوا أنفسهم على قضاء الله، وقالوا: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

قال الراغب الأصفهاني رَحْمَةُ اللَّهِ<sup>(2)</sup>: «وليس يريد بالقول اللَّفْظَ فقط، فإن التلفظ بذلك مع الجَزَع القبيح والسَّخَط للقضاء ليس يعني شيئاً، وإنما يُريد تَصَوُّرَ ما خُلِقَ الإنسانُ لأجله، والقصد له، والاستهانة بما يَعْرِضُ في طريق الوُصُول، فأمرَ تعالى بِبِشَارَةِ مَنْ اِكْتَسَبَ العلومَ الحَقِيقِيَّةَ وَتَصَوَّرَهَا، وَتَصَوَّرَ بِهَا الْمَقْصِدَ وَوَطَّنَ نَفْسَهُ عَلَيْهِ.

فإن قيل: ولِمَ قلتَ إن الأمر بالصبر يقتضي العلم، وما الصبر من العلم؟

قيل: الصبر على الحقيقة إنما يكون لمن عَرَفَ فضيلةَ مطلوبه، ولهذا قال الخضر

لموسى لما علم أن ليس يعرف مقصده في فعله: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ٦٧

1- انظر: «تفسير السعدي» (ص 75).

2- «تفسير الراغب الأصفهاني» (1/ 353).

وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ۗ خُبْرًا ﴿[الكهف: ٦٧ - ٦٨]، فدل أن حقيقة تحمل الصبر لا بد له من معرفة المقصود به». انتهى.

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ فِي «منظومة السير إلى الله»:

صَبَرُوا النَّفُوسَ عَلَى الْمَكَارِهِ كُلِّهَا شَوْقًا إِلَى مَا فِيهِ مِنْ إِحْسَانٍ

عِظَمُ الْأَجْرِ لِمَنْ حَقَّقَ عِبَادَةَ الصَّبْرِ

ومن الإحسان المترتب على الصبر دخول الجنة، كما في قول الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الفرقان: ٧٥]، أي: بما تحمّلوا من الصبر في الوصول إلى مرضاة الله. (1)

قال بعضُ السلف: «جعل الله رأس أمور العباد العقل، ودليلهم العلم، وسائقهم العمل، ومقويهم على ذلك الصبر». (2)

والصبر: هو الحبس، لغةً.

وفي الشرع: حبس النفس على حكم الله.

وحكم الله نوعان: حكم شرعي، وحكم قدري.

والحكم الشرعي أمران: فعل طاعة، وترك معصية.

فيكون الصبر على الحكم الشرعي بحبس النفس على فعل الطاعة وترك المعصية.

وأما الحكم القدري: فالصبر عليه يكون بحبس النفس عن الجزع، واللسان عن

1- «المفردات في غريب القرآن» (ص 474)، للراغب الأصبهاني رَحِمَهُ اللهُ.

2- رواه ابن أبي الدنيا في «الصبر والثواب عليه» (38).

التشكّي، والجوارح عن لطم الحدود وشق الجيوب.<sup>(1)</sup>  
 قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ<sup>(2)</sup>: «فمدار الصبر على هذه الأركان الثلاثة، فإذا قام بها العبد كما ينبغي انقلبت المحنة في حقه منحة، واستحالت البلية عطية، وصار المكروه محبوباً». انتهى.

فلا ينهض بامثال المأمورات وترك المنهيات إلا من صَبَرَ، والصبر خُلِقَ من الأخلاق التي تَتَرَبَّى وتَنَمُو بالمران والدوام، فواجبٌ على المكلف أن يجعل تربية نفسه عليه وتعويدها به من أكبر همّه، إذ لا يقوم بالتكاليف الشرعية إلا به، بل ولا يستطيع الحياة في هذه الدار الدنيا الموضوعية على المحنة والابتلاء إلا إذا تمسك بسببه.<sup>(3)</sup>  
 قال بعض السلف<sup>(4)</sup>: «مَنْ جَزَعَ مِنْ مِصَائِبِ الدُّنْيَا تَحَوَّلَتْ مُصِيبَتُهُ فِي دِينِهِ».

وقال الحسين بن عبد الرحمن:<sup>(5)</sup>

فلم أر أوفى للبلاء من التُّقَى ولم أر للمكروه أشفى من الصَّبرِ

وروي عن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قوله<sup>(6)</sup>: «ألا إنَّ الصبرَ مِنَ الإيمانِ بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قُطِعَ الرأسُ بادَ الجسدُ»، ثم رَفَعَ صَوْتَهُ فقال: «ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر

1- انظر: شرح منظومة السير إلى الله والدار الآخرة، للمؤلف عفا الله عنه.

2- «الوابل الصيب» (ص 5).

3- «آثار ابن باديس» (1/ 500).

4- «حلية الأولياء» (9/ 327).

5- «الصبر والثواب عليه» (88).

6- رواه أبو نعيم في «الحلية» (1/ 75)، وابن أبي الدنيا في «الصبر والثواب عليه» (8).

له!«.

وسبب ذلك - كما قال بعض أهل العلم<sup>(1)</sup> - راجع إلى أن الصبر يدخل في كل باب، بل في كل مسألة من مسائل الدين.

قال ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ<sup>(2)</sup>: «وإذا تأملت مراتب الكمال المكتسب في العالم، رأيتها كلها منوطة بالصبر، وإذا تأملت النقصان الذي يذم صاحبه عليه، ويدخل تحت قدرته، رأيتَه كله من عدم الصبر، فالشجاعة والعفة، والجود والإيثار كله صبر ساعة...»

وأكثر أسقام البدن والقلب، إنما تنشأ عن عدم الصبر، فما حُفِظَت صحة القلوب والأبدان والأرواح بمثل الصبر، فهو الفاروق الأكبر، والترياق الأعظم...». انتهى.

وقال الحسن: «الصبر كنز من كنوز الخير، لا يعطيه الله إلا لعبد كريم»<sup>(3)</sup>.

وقال وهب بن منبه: «ثلاث من كن فيه أصاب البر: سخاوة النفس، والصبر على

الأذى، وطيب الكلام»<sup>(4)</sup>.

1- انظر: «عدة الصابرين» (ص 111).

2- «زاد المعاد» (4/305).

3- رواه ابن أبي الدنيا في «الصبر والثواب عليه» (16). وانظر: «عدة الصابرين» (ص 95).

4- رواه ابن أبي الدنيا في «الصبر والثواب عليه» (38).

## فوائد المَحْنِ والبَلَايَا

للبلَاءِ فَوَائِدُ تُسَلِّيُّ مِنْ عَرَفَهَا، وَمِنْحٌ تَشْرَحُ صَدْرَ مَنْ عَقَلَهَا، جَاءَتْ مَبْثُوثَةً فِي نِصُوصِ الْكِتَابِ وَالسَّنَةِ، وَمِنْ أَحْسَنِ مَنْ اسْتَنْبَطَهَا الْعَلَامَةُ الْعَزَبُ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي رِسَالَةٍ لَهُ نَافِعَةٌ تَكَلِّمُ فِيهَا عَلَى فَوَائِدِ الْمَحْنِ وَالرِّزَايَا<sup>(1)</sup>، قَالَ فِيهَا<sup>(2)</sup>:  
 «لِلْمِصَائِبِ وَالْبَلَايَا وَالْمَحْنِ وَالرِّزَايَا فَوَائِدُ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ رُتَبِ النَّاسِ:  
 أَحَدُهَا: مَعْرِفَةُ عِزِّ الرَّبُّوبِيَّةِ وَقَهْرِهَا.

وَالثَّانِي: مَعْرِفَةُ ذُلِّ الْعِبُودِيَّةِ وَكَسْرِهَا، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ إِذَا  
 أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، فَاعْتَرَفُوا بِأَنَّهُمْ مِلْكُهُ وَعَبِيدُهُ  
 وَأَنَّهُمْ رَاجِعُونَ إِلَى حُكْمِهِ وَتَدْبِيرِهِ وَقَضَائِهِ وَتَقْدِيرِهِ، لَا مَفَرَّ لَهُمْ مِنْهُ، وَلَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهُ.

1- طبعت هذه الرسالة في دار الفكر بعنوان: «الفتن والبلايا والمحن والرزايا، أو فوائد البلوى والمحن»، بتحقيق إياد خالد الطباع. ونقل كلامه من الرسالة المذكورة العلامة جمال الدين القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «محاسن التأويل» (1/444-449).

وَمَنْ أَحْسَنَ فِي هَذَا الْبَابِ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ الْعُجَابُ «زاد المعاد» تحت: «فصل في هديه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي عِلَاجِ حُرِّ الْمِصِيبَةِ وَحُزْنِهَا»، فَقَدْ أَتَى فِيهِ بِرَوَائِعِ الْكَلِمِ وَمَتِينِ الْعِلْمِ.  
 وَفِي الْبَابِ كِتَابٌ مُسْتَقِلٌّ، مِنْهَا: «تسليّة أهل المصائب»، لشمس الدين المنبجي (المتوفى: 785هـ). انظر ترجمته في «الأعلام» (7/41)، للزركلي رَحِمَهُ اللَّهُ.

2- باختصار وتصرف اقتضاهما المقام، وزيادات أثبتها في أول الأمر في الحاشية، ثم رأيت إدماجها في النص لأهميتها، وهي أحيانا كالشرح لكلام العز رَحِمَهُ اللَّهُ.

والثالثة: الإخلاص لله تعالى إذ لا مرجع في رفع الشدائد إلا إليه، ولا مُعْتَمَدَ في كشفها إلا عليه، ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [يونس: ١٠٧].

الرابعة: الإنابة إلى الله تعالى، والإقبال عليه، ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر: ٨].

الخامسة: التضرع والدعاء لله جَلَّ جَلَالُهُ، ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّكُمْ مِنْ ظُلْمَتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَلْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٦٣].

السادسة: الحِلْمُ ممن صدرت عنه المصيبة، ويختلف ذلك باختلاف المصائب في صغرها وكبرها، فالحلم عند أعظم المصائب أفضل من كل حِلْمٍ.

السابعة: العفو عن جانيها، ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، والعفو عن أعظمها أفضل من كل عفو.

الثامنة: الصبر عليها، وهو موجب لمحبة الله تعالى وكثرة ثوابه ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وفي الحديث: «وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ»<sup>(١)</sup>.

التاسعة: الفرح بها لأجل فوائدها، قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَإِنْ كَانُوا لَيَفْرَحُونَ بِالْبَلَاءِ، كَمَا تَفْرَحُونَ بِالرَّخَاءِ»<sup>(٢)</sup>. وإنما فرحوا بها إذ لا وَقَعَ لشدتها ومرارتها بالنسبة إلى

1- رواه البخاري (1469)، ومسلم (1053).

2- رواه أحمد (11893)، وابن ماجه (4024)، وغيرهما، وصححه الألباني في «الصحيحه» (144).

ثَمَرَتِهَا وَفَائِدَتِهَا، كَمَا يَفْرَحُ مِنْ عُظْمَتِ أَدْوَاؤِهِ بِشُرْبِ الْأَدْوِيَةِ الْحَاسِمَةِ لَهَا، مَعَ تَجَرُّعِهِ لِمَرَارَتِهَا.

العاشرة: الشكر عليها لما تضمنته من فوائدها، كما يشكر المريض الطبيبَ القاطعَ لأطرافه، المانع من شهواته، لما يتوقع في ذلك من البرء والشفاء. (1)

الحادية عشرة: تمحيصها للذنوب والخطايا، ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠]، وفي الحديث: «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ، مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذَى وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ». (2)

قلت: ووجه الاستدلال من الآية أن بعض أهل العلم قال في معناها: «هي إخبار من الله تعالى بأن الرزايا والمصائب في الدنيا إنما هي مجازاة من الله تعالى على ذنوب المرء وخطاياها، وأن الله تعالى يعفو عن كثير فلا يعاقب عليه بمصيبة». (3)

قال العلامة ابن باديس رَحِمَهُ اللهُ<sup>(4)</sup>: «ما يكون من باب المصائب والآلام فعلى العبد أن يتناولها على أنه نعمة من الله تعالى، فيها من الأجر والتمحيص، وبها يحصل الرجوع

1- تكلمت في «شرح منظومة السير إلى الله لابن سعدي» عن الفرق بين الصبر والرضا والشكر، فأغنى ذلك عن تكراره هنا.

2- رواه البخاري (5641)، ومسلم (2573). و«النَّصَبُ»: التعب، و«الْوَصَبُ»: المرض.

3- انظر: «المحرر الوجيز» (37/5)، لابن عطية الأندلسي رَحِمَهُ اللهُ.

4- انظر: «الآثار» (338/1).

والإنابة إلى الله، ويكون منها تربية وتدريب على السلوك اللازم في الحياة الفردية والاجتماعية». انتهى.

الثانية عشرة: رحمة أهل البلاء ومساعدتهم على بلواهم. فالناس مُعافى ومُبتلى، فارحموا أهل البلاء، واشكروا الله تعالى على العافية.

الثالثة عشرة: معرفة نعمة العافية والشكر عليها. فإن النعم لا تُعرف أقدارها إلا بعد فقدها.

الرابعة عشرة: ما أعدّه الله تعالى على هذه الفوائد من ثواب الآخرة على اختلاف مراتبها.

الخامسة عشرة: ما في طيها من الفوائد الخفية، ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]. وفي قوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: هو أعلم بعواقب الأمور منكم، وأخبر بما فيه صلاحكم في دنياكم وأخراكم، فاستجيبوا له، وانقادوا لأمره، لعلكم ترشدون. (1)

ولما أخذ الجبار سارة من إبراهيم كان في طي تلك البلية أن أخدمها هاجر، فولدت إسماعيل لإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، فكان من ذرية إسماعيل خاتم النبيين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَأَعْظِمُ بِذَلِكَ مِنْ خَيْرٍ كَانَ فِي طَيِّ تِلْكَ الْبَلِيَّةِ.

1- «تفسير ابن كثير» (1/ 573).

السادسة عشرة: إِنَّ المصائبَ والشدائدَ تمنع من الأشرِّ والبَطَرِ والفَخْرِ والخِيلاءِ والتكَبُّرِ والتجَبُّرِ، فَإِنَّ نمرودَ لو كان فقيراً سقيماً، فاقدَ السَّمعِ والبصرِ، لما حاجَّ إبراهيمَ في ربه، لكنَّ حَمَلَهُ بَطَرُ المُلْكِ على ذلك. وقد علَّلَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُحَاجَّتَهُ بِإتيانه المُلْكِ، ولو ابتليَ فرعونُ بمثل ذلك لما قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، واللهُ يقول: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [التوبة: ٧٤]، وقال: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧]، في آيات كثيرة.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ<sup>(١)</sup>: «والفقرُ يصلحُ عليه خلقٌ كثير، والغنى لا يصلحُ عليه إلا أقلَّ منهم». انتهى.

والفقراء والضعفاء هم الأولياء وأتباع الأنبياء. وهذه الفوائد الجليلة كان أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل.

وما أحسن قول ابن مفلح المقدسي رَحِمَهُ اللهُ<sup>(٢)</sup>: «لولا المصائب لبطر العبد وبغى وطغى، فيحميه بها من ذلك ويطهره مما فيه، فسبحان من يرحم ببلائه، ويبتلي بنعمائه كما قيل:

قد يُنعمُ اللهُ بالبلوى وإنْ عَظُمَتْ      ويبتلي اللهُ بعضَ القومِ بالنعمِ

1- «الحسنة والسيئة» (ص 73).

2- «الآداب الشرعية» (2/191).

واعلم أن مرارة الدنيا حلاوة الآخرة، والعكس بالعكس، ولهذا قال: عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ»<sup>(1)</sup>، وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»<sup>(2)</sup>، ومعلوم أن العاقل من احتمال مرارة ساعة لحلاوة الأبد. ودُلُّ ساعة لعزِّ الأبد، هذا من لطف الله به حتى نظر في العواقب والغايات، والناس -إلا من عصم الله- آثروا العاجل لمشاهدته وضعف الإيمان». انتهى.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ<sup>(3)</sup>: «وفي هذا المقام تفاوتت عقول الخلائق، وظهرت حقائق الرجال، فأكثرهم آثر الحلاوة المنقطعة على الحلاوة الدائمة التي لا تزول، ولم يجتمل مرارة ساعة لحلاوة الأبد، ولا دُلُّ ساعة لعزِّ الأبد، ولا محنة ساعة لعافية الأبد، فإنَّ الحاضرَ عنده شهادةٌ، والمنتظرُ غيبٌ، والإيمانُ ضعيفٌ، وسُلطانُ الشهوة حاكمٌ، فتولَّدَ من ذلك إيثارُ العاجلة، ورَفُضُ الآخرة، وهذا حالُ النَّظرِ الواقعِ على ظواهرِ الأمور، وأوائلها ومبادئها، وأما النَّظَرُ الثاقِبُ الذي يَحْرِقُ حُجْبَ العاجلة، ويُجاوِزُهُ إلى العواقبِ والغايات، فله شأنٌ آخر». انتهى.

فحال الشدة والبلوى مقبلة بالعبد إلى الله ﷻ، وحال العافية والنعماء صارفة للعبد عن الله تعالى، ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ

1- رواه مسلم (2956). قال ابن رجب في «غاية النفع» (الرسائل، 1/ 223): «لما كانت الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، فصاحب السجن لا يزال في بلاء حتى يخرج منه، فإذا خرج من السجن أفصى إلى الرِّخاء والنَّعيم الدائم، وصاحب الجنة إذا خرج منها وقع في السجن الدائم». انتهى.

2- رواه مسلم (2822).

3- «زاد المعاد» (4/ 179). وكلامه قيلها قريب من كلام ابن مفلح رحمهما الله تعالى.

ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ ﴿[يونس: ١٢]، فلاجل ذلك تقللوا في المآكل والمشارب والمناكح والمجالس والمراكب وغير ذلك، ليكونوا على حالة توجب لهم الرجوع إلى الله تعالى والإقبال عليه.

قلت: فيا عبد الله! اعرف ربك في الرخاء، يعرفك في الشدة، ولا تكن كهذا الذي لا يشكر عند الرخاء، ويشكو ويجزع إذا نزل البلاء! قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿[فصلت: ٥١].<sup>(1)</sup>

وقد روي عن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قوله: «يوشك أن يفضي بالصابر البلاء إلى الرخاء، وبالفاجر الرخاء إلى البلاء».<sup>(2)</sup>

السابعة عشرة: الرضا الموجب لرضوان الله تعالى. فَإِنَّ الْمَصَائِبَ تَنْزِلُ بِالْبَرِّ وَالْفَاجِرِ، فَمَنْ سَخِطَهَا فَلَهُ السَّخَطُ وَخُسْرَانُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ رَضِيَهَا فَلَهُ الرِّضَا. والرِّضَا أَفْضَلُ مِنَ الْجَنَّةِ وَمَا فِيهَا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، أَي مِنْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَمَسَاكِينِهَا الطَّيِّبَةِ<sup>(1)</sup>. انتهى كلامه بطوله رَحْمَةُ اللَّهِ، بتصرف.

1- تكلمت عن هذا بإطالة في كتابي: «شذا العبير بشرح قصيدة ابن تيمية: (أنا الفقير)»، عند ذكر مقام الفقر والمسكنة لله. وانظر: «مشهد الذل والانكسار» في «مدارج السالكين» (1/427)، و«اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملاء الأعلى» ضمن «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب» (1/135)، وله في الباب رسالة بعنوان «الذل والانكسار للعزيم الجبار» ضمن «مجموع الرسائل» (1/275).

2- «الصبر والثواب عليه» (74).

---

=

1- قال ابن سعدي في «تفسيره» (ص 343): ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ يجله على أهل الجنة ﴿أَكْبَرُ﴾ مما هم فيه من النعيم، فإن نعيمهم لم يطب إلا برؤية ربهم ورضوانه عليهم، ولأنه الغاية التي أمَّها العابدون، والنهاية التي سعى نحوها المحبون، فرضا رب الأرض والسموات، أكبر من نعيم الجنات». انتهى.

### سؤال الله العافية وعدم التعرض للبلاء

إنَّ الكلام على الصبر وما جعل الله فيه من العواقب الحسنة إنما يكون لمن نزل به، ولا يعني هذا سؤاله أو التعرُّض له، فإنَّ مَنْ رُزِقَ العافية في دينه ودنياه فقد سَلِمَ.

ولما تكلم ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ على فوائد البلاء في شرح حديث «أَحْفَظُ اللهُ يَحْفَظُكَ»، يَبِّنُ أن العبدَ لا يتعرض لأسباب البلاء، ومن هنا كان طائفة من السلف كابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وغيره يأمرُون من يخاف أن لا يصبر على ما يخالف هواه مما يختار الله له أن يقول في استخارته: «في عافية»، فإنه قد يختار له البلاء ولا يصبر عليه. (1)

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ (2): «فلا ينبغي للعبد أن يتعرَّض للبلاء، ولكن يسأل الله العافية وأن يرزقه الرضا بالبلاء إنَّ قَدَّرَ له البلاء». انتهى.

ولهذا جاءت الأحاديث الصحاح تأمر بسؤال الله العافية، ومن ذلك قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَلُوا اللهَ العافية، فَلَمْ يُوْت أَحَدٌ قَطُّ بَعْدَ اليقينِ أَفْضَلَ مِنَ العافية» (3)، وكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقول في دعائه: «اللَّهُمَّ أَحْسِنْ عاقِبَتَنَا فِي الأُمُورِ كُلِّهَا، وَأَجِرْنَا مِنْ خِزْيِ الدُّنْيَا، وَعَذَابِ الآخِرَةِ» (4)، وأرشد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحدَ أصحابه أن يقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَاهْدِنِي، وَعَافِنِي وَارزُقْنِي» (5).

1- انظر: «نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عباس»، «رسائل ابن رجب» (3 / 148).

2- «مجموع الرسائل» (1 / 176).

3- رواه أحمد في «المسند» (5)، وقال المحققون: إسناده صحيح.

4- رواه أحمد في «المسند» (17628)، وضعفه الألباني في «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (2907).

5- رواه مسلم (2697).

ويُروى أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرَّ برجل يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الصَّبْرَ»، فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «سَأَلْتَ اللَّهَ الْبَلَاءَ، فَسَلَّهُ الْعَافِيَةَ». (1)

ولهذا كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَعَوَّذُ مِنْ «جَهْدِ الْبَلَاءِ، وَدَرَكِ الشَّقَاءِ، وَسُوءِ الْقَضَاءِ، وَشَمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ». (2)

و(جَهْدُ الْبَلَاءِ): ما يُجْهَدُ مِنَ الْبَلَاءِ، حتى قال ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «هُوَ قِلَّةُ الْمَالِ، وَكَثْرَةُ الْعِيَالِ».

وقال ابن بطال وغيره: (جَهْدُ الْبَلَاءِ): كُلُّ مَا أَصَابَ الْمَرْءَ مِنْ شِدَّةٍ وَمَشَقَّةٍ، وَمَا لَا طَاقَةَ لَهُ بِحَمْلِهِ وَلَا يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِهِ.

و(دَرَكُ الشَّقَاءِ): ما يُدْرِكُ الْعَبْدَ مِنَ الشَّقَاءِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

و(سُوءُ الْقَضَاءِ): فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْبَدَنِ وَالْمَالِ وَالْأَهْلِ، وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ فِي الْخَاتِمَةِ.

و(شَمَاتَةُ الْأَعْدَاءِ): فَرَحُ الْعَدُوِّ بِبِلْيَةِ تَنْزِلِ بَعْدُوِّهِ. (3)

قلت: ويدخل في هذا سؤال الله المطالب العالية التي قد لا تتحقق إلا بتمحيص الإنسان، وابتلائه بعظيم الامتحان، ومن هذا قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا

1- رواه الترمذي (3527)، والبيهقي في «الدعوات الكبير» (287) (بَابُ الْحُثِّ عَلَى الدُّعَاءِ بِالْعَافِيَةِ)، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (4520). وانظر: «الوابل الصيب» (ص 148).

2- رواه البخاري (6347)، ومسلم (2707).

3- انظر: «شرح ابن بطال على البخاري» (10/110)، و«شرح مسلم» (31/17)، و«فتح الباري» (11/148)، و«الاستذكار» (2/524).

يَنْفَدُ، وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ، وَأَسْأَلُكَ الرَّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ  
بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشُّوقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ،  
وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ»<sup>(1)</sup>.

فلما سأل الله أشرف المنازل، وأعلى المقامات، والنظر إلى وجه رب الأرض  
والسماوات، عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ لَنْ يَكُونَ إِلَّا بِالْتَمَحِيصِ وَالِابْتِلَاءِ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
مُرْشِدًا أُمَّتَهُ، رَأْفَةً وَرَحْمَةً بِهِمْ: «فِي غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ».

ومعنى: (ضَرَاءٌ مُضِرَّةٌ): الضَّرُّ الذي لم يصبر عليه.<sup>(2)</sup>

قال العلامة الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ<sup>(3)</sup>: «قوله: (مُضِرَّةٌ) إنها قَيْدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ  
لأنَّ الضَّرَاءَ ربما كانت نَافِعَةً أَجْلاً أَوْ عَاجِلاً، فَلَا يَلِيْقُ الِاسْتِعَاذَةَ مِنْهَا.

وقوله: (مُضِلَّةٌ) وَصَفَهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ لِأَنَّ مِنَ الْفِتَنِ مَا يَكُونُ مِنْ أَسْبَابِ  
الْهُدَايَةِ، وَهِيَ بِهَذَا الْاِعْتِبَارِ مِمَّا لَا يُسْتَعَاذُ بِهِ. وَالْفِتْنَةُ هِيَ الْاِمْتِحَانُ وَالْاِخْتِبَارُ». انتهى.

وروي أَنَّ رَجُلًا كَانَ يَسْأَلُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَرْزُقَهُ الْجِهَادَ وَالْغَزْوَ فِي سَبِيلِهِ، فَهَتَفَ بِهِ  
هَاتِفٌ: «إِنَّكَ إِنْ غَزَوْتَ، أُسِرْتَ، وَإِنْ أُسِرْتَ، تَنْصَرْتَ».

فليعلم العبدُ أَنَّ اِخْتِيَارَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ لَهُ خَيْرٌ مِنْ اِخْتِيَارِهِ لِنَفْسِهِ، فربما سأل سَيِّئًا

فسال به!<sup>(1)</sup>

1- رواه والنسائي (1305)، وأحمد في «المسند» (18325)، وصححه الألباني في «الكلم الطيب» (106).

وشرحه ابن رجب في رسالة مستقلة مطبوعة مع «مجموع رسائله» (1/153-187).

2- انظر: «شرح الطيبي على المشكاة» (6/1933).

3- «نيل الأوطار» (2/343)، بتصرف.

وفي «الصحيحين»<sup>(2)</sup> أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقَيْتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا».

وفي الحديث فوائد:

منها: النهي عن تمني لقاء العدو لما فيه العُجب، وما قد يؤول إليه الأمر على وجه

لا يصبر معه العبد.

ومنها: الإرشاد إلى سؤال الله العافية، وأهمية ذلك في الرخاء والشدة.

ومنها: الأمر بالصبر إذا نزل البلاء، إذ هو مفتاح الفرج، وانتظار الفرج عبادة، يجد

معها العبد من لين القلب، والأنس بالله، وقطع الطمع عن غيره ما يصعب وصفه.

ومن بدائع ابن الجوزي<sup>(3)</sup>: «فإياك إياك أن تستطيل زمان البلاء، وتضجر من كثرة

الدعاء، فإنك مُبتلى بالبلاء، مُتعبد بالصبر والدعاء، ولا تيأس من روح الله وإن طال

البلاء». انتهى.

قلت: وفي قول ابن الجوزي: «ولا تيأس من روح الله وإن طال البلاء» إشارة إلى أن

السُّرور يقصر به الزمن، والكروب والهجوم سبب لطوله.<sup>(4)</sup>

قال سفيان بن الحارث رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَرثِي رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

1- انظر: «صيد الخاطر» (ص 83، 171).

2- البخاري (3024)، ومسلم (1742).

3- «صيد الخاطر» (ص 439).

4- انظر: «أضواء البيان» (5/ 279)، للعلامة الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ.

أَرَقْتُ فَبَاتَ لَيْلِي لَا يَزُولُ      وَلَيْلُ أَخِي الْمَصِيبَةِ فِيهِ طُولُ  
وقال الآخر:

فَقَصَّارُهُنَّ مَعَ الْهُمُومِ طَوِيلَةٌ      وَطَوَّالُهُنَّ مَعَ السُّرُورِ قِصَارُ  
وأما عن حقيقة العافية، فقد قال الحافظ النووي رَحِمَهُ اللهُ<sup>(1)</sup>: «وقد كثرت  
الأحاديثُ في الأمرِ بسؤالِ العافية، وهي من الألفاظِ العامة المتناولة لدفعِ جميعِ  
المكروهاتِ في البدنِ والباطنِ، في الدينِ والدنيا والآخرة.  
اللهم إني أسألك العافية العامة لي ولأحبائي ولجميع المسلمين». آمين.

وإذا قيل: أليس الصبر يكون كذلك على فعل الأوامر وترك النواهي؟ فلماذا لا  
نُطلق القول بسؤال الله الصبر في الدعاء؟

والجواب -والله أعلم- من أوجه:

أولاً: إنَّ الصبر إذا أُطْلِقَ عند الناس انصرفت أذهائهم إلى الصبر على الأقدار  
المؤلمة.

والوجه الثاني: لو كان المقصودُ بالصبر كلُّ أنواعه -ومنها الصبر على البلاء-، فإذا  
قلت: «اللهم ارزقني الصبر» دخل فيه الصبر على البلاء، وعليه، قد يدخل في النهي  
الوارد في الحديث. وأما إذا قيِّدت وقلت: «اللهم ارزقني الصبر على فعل الطاعة»، أو  
«اللهم ارزقني الصبر على ترك المعصية»، جاز هذا الدعاء بهذا القيِّد.

والوجه الثالث: أنّه إذا نزل البلاء، جاز للمؤمن أن يسأل الله الصبر حينها، كفعل أصحاب طالوت، ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

## المصائب نوعان: مصيبة في الدنيا وأخرى في الدين

تقدم بيان أن المصائب والابتلاء أمر لازم لكل مؤمن، يُمحّصُ اللهُ به العباد، ويُكفر به الذنوب، ويرفع به الدرجات.

والمصيبة: كل ما يؤذي المؤمن ويصيبه. يقال: أصابه إصابة ومُصابة ومُصابا. والمصيبة واحدة المصائب، وهي: النكبة ينكبها الإنسان - وإن صغرت -، وتستعمل في الشر. (1)

والمصائب - عافاني الله وإياك - نوعان:

- مصيبة في الدنيا،
- ومصيبة في الدين.

### حقيقة مصيبة الدنيا

وهي التي يعنيها العوام إذا أطلقوا لفظ «المصيبة»، فيدخل فيها كل ما يصيب الإنسان في بدنه، وأهله، وماله، وغير ذلك، مما يتعلّق بهذه الدنيا، ومن أشدّه قلة ذات اليد وضمّعت الحال وأمراض البدن.

وقد تقدم الكلام على فوائد هذه المصائب لمن صبر على قضاء الله، وسلم لمولاه، واستقام على شرع الله، وسنة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

1- انظر: «تفسير القرطبي» (2/ 275)، و«تسليّة أهل المصائب» (ص 9)، للمنبجي.

ومصائب الدنيا تابعة للدنيا، حالا ومآلا، فكما أن الدنيا فانية، فكذلك مصائبها وإن طالّت فانية، وكما أن الدنيا دار ممر لا مقر، فكذلك مصائبها أبدا لا تستقر، وكما أن الدنيا لا تساوي شيئا إذا قورنت بالآخرة، فكذلك مصائبها، لأن الآخرة خيرٌ وأبقى.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ<sup>(1)</sup>: «مَنْ تَلَمَّحَ بَحْرَ الدُّنْيَا، وَعَلِمَ كَيْفَ تُتَلَقَّى الْأَمْوَاجُ، وَكَيْفَ يُصْبِرُ عَلَى مُدَافَعَةِ الْأَيَّامِ، لَمْ يَسْتَهْوِلْ نُزُولَ بَلَاءٍ، وَلَمْ يَفْرَحْ بِعَاجِلِ رَخَاءٍ». انتهى.

قلت: وفي التنزيل: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣].

ومن جميل الحكم ما روي عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: «مَنْ اشْتَقَّ إِلَى الْجَنَّةِ سَلَا عَنْ الشَّهَوَاتِ، وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ النَّارِ رَجَعَ عَنِ الْمَحْرَمَاتِ، وَمَنْ زَهَدَ فِي الدُّنْيَا تَهَاوَنَ بِالْمُصِيبَاتِ، وَمَنْ ارْتَقَبَ الْمَوْتَ سَارَعَ إِلَى الْخَيْرَاتِ».<sup>(2)</sup>

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ<sup>(3)</sup>: «وَأَمَّا مَصَالِحُ الدُّنْيَا فَهِيَ تَابِعَةٌ فِي الْحَقِيقَةِ لِمَصَالِحِ الدِّينِ، فَمَنْ انْفَرَطَ عَلَيْهِ مَصَالِحُ دِينِهِ وَضَاعَتْ عَلَيْهِ، فَمَصَالِحُ دُنْيَاهُ أَضِيعٌ وَأَضِيعٌ». انتهى.

وفي «نونية القحطاني»:

الدِّينُ رَأْسُ الْمَالِ فَاسْتَمْسِكْ بِهِ فَضْيَاعُهُ مِنْ أَعْظَمِ الْخُسْرَانِ

1- «صيد الخاطر» (ص 187).

2- رواه عنه الاللكائي رَحِمَهُ اللهُ في «شرح أصول الاعتقاد» (4/ 924).

3- «الجواب الكافي» (ص 169).

وتأمل هذا الحديث العظيم، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ<sup>(1)</sup> فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللَّهِ يَا رَبِّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ». (2)

وفي هذا الحديث فوائد:

منها: أن الدنيا يتنعم فيها الكافر والمؤمن، لأنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، وليس من حرمها قد هان على الله، ولا من أعطيها كريم عند الله، بل يُعطيها أعداءه، ويحفظ الله منها أوليائه.

ومنها: أن نعيم الدنيا -مهما عظم- لا يُساوي شيئاً إذا لم تصحبه طاعة الله.

ومنها: أن غمسة واحدة في النار تُنسي كل نعيم في الدنيا.

قال ابن عثيمين رحمه الله<sup>(3)</sup>: «هذا وهو شيء يسير، فكيف بمن يكون مخلداً فيها

والعياذ بالله أبد الأبدين؟!». انتهى.

ومنها: أن غمسة واحدة في الجنة تُنسي كل مصائب الدنيا.

فما هي إلا ساعة ثم تنقضي ويذهب هذا كله ويَزُولُ

1- أي: يُغَمَسُ.

2- رواه مسلم (2807).

3- «شرح رياض الصالحين» (3/364).

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ<sup>(1)</sup>: «لا يجد أهل الجنة من ألم نَصَبِ الدنيا شيئاً، بل ينقلبُ راحةً أبداً.

جميعُ آلام لَسْعِ النَّحْلِ يُذْهِبُهَا مَا يَجْتَنِي الْمُجْتَنِي مِنَ لَذَّةِ الْعَسَلِ  
 من طَمَعَ في الوُصُولِ إلى المعالي، صَبَرَ على مُواصَلَةِ نَصَبِ النهارِ بسهر الليالي.<sup>(2)</sup>  
 ومن أراد غداً قُرْبنا، فليصبرِ اليومَ على أَلَمِ ضَرْبِنا، فما يُحْسُ بِأَلَمِ مَنْ صَدَقَ في حُبِّنا.

فلا بد من البلوى والاختبار، ليتبين الصادقُ اليومَ من الكاذبِ، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْهَدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوا أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

مراتب الدنيا لا تُنالُ إلا بالصَّبرِ على البلاءِ في طلبِها والمُجاهدةِ، فكيفَ مَنْ أرادَ مَقْعَدَ صِدْقٍ عندَ مَلِيكَ مُقْتَدِرٍ؟! . انتهى.

ومنها: أنَّ الدنيا إذا فاتت، فإنَّ في الآخرةِ نعيماً أكبرَ يُنسي بؤسها، وأما مَنْ ضيَّعَ الدينَ، فقد فاتته الآخرةُ التي لا تُعوَّضُ، ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠]، وقد بيَّن اللهُ كَذِبَ هذه الدَّعْوَى بقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُوَ عَنْهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

1- «غاية النفع» (الرسائل، 1/ 223)، بتصرف.

2- تكلمت -بفضل الله- عن هذا الأصل (وهو أن دار الراحة لا تُنالُ بالراحة) في «شرح منظومة السير إلى الله»، و«شرح قصيدة ابن تيمية في الفقر إلى الله».

ومنها: أن المصائب -مهما عظمت- لا تُساوي شيئاً إذا دخل العبد الجنة، وتفضل الله عليه بأعظم منة.

إذا صحَّ منك الودُّ فالكلُّ هينٌ فكلُّ الذي فوق التراب ترابٌ<sup>(1)</sup> ومنها: الفرق الكبير بين الدنيا التي لم يرضها الله لأوليائه، والآخرة التي اختارها الله لأصفيائه، وحكم بالعذاب السرمدي فيها لأعدائه.

والدلائل على هذا أكبر من أن تُحصر -سيما في مثل هذه الورقات-، وحسبي ذكر بعض النصوص التي تُوضِّح حقارة الدنيا بالنسبة للآخرة<sup>(2)</sup>، وإن كان العبدُ لن يصلَ للآخرة إلا بالعمل والاجتهاد في هذه الدنيا.

#### نصوص في ذمِّ الدنيا مقارنة بالآخرة

قال الله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بِنَائِهِ، ثُمَّ يَبِيجُ فَتَرِنُهُ مُمْصَراً ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَعْرِفَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

1- قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ فِي: «نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عباس» (الرسائل، 142/3): «فمن تحقق أن كل مخلوق فوق التراب فهو تراب، فكيف يُقدِّم طاعة من هو تراب على طاعة رب الأرباب؟ أم كيف يُرضي التراب بسخط الملك الوهاب، إن هذا لشيء عجاب!». انتهى.

2- المراجع في هذا كثيرة وشهيرة. انظر مثلاً: «رياض الصالحين» (1/161-168)، للحافظ النووي رَحِمَهُ اللهُ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ<sup>(1)</sup>: «فأخبر سبحانه عن حقيقة الدنيا بما جعله مُشَاهِداً لأولي البصائر، وأنها لِعِبٌّ وهو تلهو بها النفوس، وتلعب بها الأبدان... ثم أخبر أنها زينة زُيِّنَتْ للعيون وللنفوس، فأخذت بالعيون والنفوس استحساناً ومحبة، ولو باشرت القلوب معرفة حقيقتها ومآلها ومصيرها لأبغضتها، ولا أثرت عليها الآخرة، ولما أثرت على الآجل الدائم، الذي هو خيرٌ وأبقى». انتهى.

وفي قصيدة ابن رجب المليحة في «ذم قسوة القلب»<sup>(2)</sup> قوله رَحِمَهُ اللهُ:

معائبُ هذه الدنيا كثيرٌ وأنت على محبتها طُبِعْتَ  
قال أحد السلف<sup>(3)</sup>: «مَنْ عَرَفَ الْمَوْتَ هَانَتْ عَلَيْهِ مَصَائِبُ الدُّنْيَا وَغُمُومُهَا».

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ

بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [فاطر: ٥]، وقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَإِنْ كُنَّ ذَلِكُمْ لَمَّا تَمْتَعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا

وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٥]، والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً.

قال بعضهم: يا هذا! الدنيا وراءك، والآخرة أمامك، والطلب لما وراءك هزيمة.<sup>(4)</sup>

1- «عدة الصابرين» (ص 169).

2- «الرسائل» (1/ 268).

3- «حلية الأولياء» (6/ 44).

4- انظر: «موارد الضمان لدروس الزمان» (4/ 648)، و«إيقاظ أولي الهمم العالية» (ص 15)، لعبد العزيز

وأما الأحاديث، فهي أصعب من أن تُحصَر في موضع واحد، ومن ذلك قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ»<sup>(1)</sup>، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «انظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ؛ فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ»<sup>(2)</sup>، وفي رواية البخاري: «إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فَضَّلَ عَلَيْهِ فِي الْمَالِ وَالْخَلْقِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ».

قلت: وهذا الكلام خاص بالدنيا الدنيَّة، وأما الآخرة الغالية، فإنه لا يصلح لها إلا أصحاب الهمم العالية.<sup>(3)</sup>

قال ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ<sup>(4)</sup>: «انظر في المال والحال والصحة إلى من دونك، وانظر في الدين والعلم والفضائل إلى من فوقك». انتهى.

وهذا بخلاف الأحمق الذي إن كان فوقك حقرك، وإن كان دونك غمرك.<sup>(5)</sup> ومن الأحاديث قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ»<sup>(6)</sup>.

1- رواه البخاري (6413)، ومسلم (1805).

2- رواه البخاري (6490)، ومسلم (2963).

3- تكلمت على الهممة العالية ونماذج صالحة منها في كتابي: «سبيل النجاة في فضائل العلم والعمل».

4- «رسائل ابن حزم» (344 / 1).

5- انظر: «روضة العقلاء» (ص 123)، لابن حبان رَحِمَهُ اللَّهُ.

6- رواه الترمذي (2320)، وابن ماجه (4110)، وصححه الألباني في «الصحيحه» (686).

قال ابن القيم في «النونية» ناظماً هذا المعنى<sup>(1)</sup>:

لو ساوت الدنيا جناح بعوضة  
لكِنَّها والله أَحقرُ عنده  
لم يَسقِ منها الرَّبُّ ذا الكُفْرانِ  
مِنَ ذا الجَناحِ القاصِرِ الطَّيرانِ  
طَبَعَتْ على كَدَرٍ فكيفَ تَنالُها  
صَفواً أَهْذا قَطُّ في الإِمكانِ

وعن الضحاك بن سفيان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُ: «يا

ضَحَّاكُ! ما طَعامُكَ؟». قال: «يا رَسُولَ اللَّهِ! اللَّحْمُ وَاللَّبَنُ». قال: «ثُمَّ يَصِيرُ إلى ماذا؟».

قال: «إلى ما قَدْ عَلِمْتَ». قال: «فإنَّ اللهَ تَعَالَى ضَرَبَ ما يُخْرِجُ مِنَ ابْنِ آدَمَ مَثَلاً

لِلدُّنْيا»<sup>(2)</sup>.

وكفى بهذا زاجراً لمن عظم مصائب الدنيا، ولم يُبالِ بضياح دينه، فإنَّ الذي فاته منها لا يعدو أن يكون من جنس المثل المضروب في هذا الحديث! ولا أظن عاقلاً يتأسف على هذا، فضلاً على إثارة على ما عند الله.

### الدنيا لا تُدْمُّ بإطلاق

الدنيا عبارة عن كل ما يشغل عن الله قبل الموت، فكلما لك فيه حظ وغرض ونصيب وشهوة ولذة في عاجل الحال قبل الوفاة، فهي الدنيا.

وليس كل ذلك مذموم، بل المذموم المنهي عن محبته هو كل ما فيه حظ عاجل ولا

ثمره له في الآخرة.<sup>(1)</sup>

1- وانظر له: «الفوائد» (ص 42).

2- رواه أحمد في «المسند» (15747)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (3242).

روى ابن أبي الدنيا رحمه الله في مواضع من كتبه (2) أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه سمع رجلاً يسب الدنيا، فقال له: «إنها لدار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود منها، ومسجد أجباء الله ﷻ، ومهبط وحيه، ومصلى ملائكته، ومتجر أوليائه، اكتسبوا فيها الرّحمة، وربحوا فيها الجنة، فمن ذا يذم الدنيا، وقد آذنت بفراقها، ونادت بينها، ونعت نفسها وأهلها، فمثلت ببلائها البلاء، وشوقت بسرورها إلى السرور، فذمها قوم عند الندامة، وحدها آخرون حدثتهم فصدقوا، وذكرتهم فذكروا، فيا أيها المعتل بالدنيا، المغتر بغرورها، متى استهوتك الدنيا؟ بل متى غرتك؟ المضاجع أبائك من الثرى؟ أم بمصارع أمهاتك من البلى؟...» إلى آخر ما قال رضي الله عنه.

1- لا يفوتك أيها القارئ الكريم ما ذكر الحافظ ابن رجب رحمه الله في «جامع العلوم والحكم» (2/ 845-904) في شرح حديث سهل بن سعد رضي الله عنه: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس»، فإن فيه من متين العلم، ولطيف الفوائد، ما يعز نظيره. ومن ذلك تفصيله للقدر المذموم من الدنيا، مدلا على ذلك من النصوص الشرعية، مع ما يتقنه من تتبع الآثار السلفية.

أسأل الله أن يجزي له المثوبة، وأن يجمعنا به في دار كرامته، مع نبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم. آمين.

2- انظر: «ذم الدنيا» (147)، و«الزهد» (210)، و«إصلاح المال» (108)، وكلها له رحمه الله.

ومثل هذه الآثار -كغيرها- أنقلها وأعزوها لأصوها -ما استطعت- بلا حكم عليها، بشرط ألا يكون في معناها ما يُستنكر، ومن شاء معرفة درجتها من الصحة، فهي منقولة -ولله الحمد- بأسانيدها.

علّق على هذا الأثر ابن رجب فقال رَحْمَةُ اللَّهِ (1): «بين أمير المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ الدُّنْيَا لَا تُذَمُّ مَطْلَقًا، وَأَنَّهَا تُحْمَدُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَنْ تَزَوَّدَ مِنْهَا الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةَ، وَأَنَّ فِيهَا مَسَاجِدَ الْأَنْبِيَاءِ، وَمَهْبَطَ الْوَحْيِ، وَهِيَ دَارُ التِّجَارَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ، اِكْتَسَبُوا فِيهَا الرَّحْمَةَ، وَرَبِحُوا بِهَا الْجَنَّةَ، فَهِيَ نِعَمَ الدَّارِ لِمَنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَتَهُ. وَأَمَّا مَا ذَكَرَ مِنْ أَنَّهَا تَغْرُّ وَتَحْدَعُ، فَإِنَّهَا تُنَادِي بِمَوَاعِظِهَا، وَتُنصَحُ بِعِبْرَتِهَا، وَتُبْدِي عِيُوبَهَا بِمَا تُرِي أَهْلَهَا مِنْ مِصَارِعِ الْهَلَكِيِّ، وَتَقْلِبُ الْأَحْوَالَ مِنَ الصِّحَّةِ إِلَى السَّقَمِ، وَمِنَ الشَّيْبَةِ إِلَى الْهَرَمِ، وَمِنَ الْغِنَى إِلَى الْفَقْرِ، وَمِنَ الْعِزِّ إِلَى الدُّلِّ، لَكِنَّ مَحَبَّهَا قَدْ أَصَمَّهُ وَأَعْمَاهُ حُبُّهَا، فَهُوَ لَا يَسْمَعُ نِدَاءَهَا». انتهى.

نَقَمْتَ عَلَى الدُّنْيَا وَلَا ذَنْبَ أَسْلَفْتَ      إِلَيْكَ فَأَنْتَ الظَّالِمُ الْمُتَكَذِّبُ  
وَهَبَّهَا فَتَاةً هَلْ عَلَيْهَا جِنَايَةٌ      بِمَنْ هُوَ صَبُّ فِي هَوَاهَا مُعَذِّبُ  
الْقَدْرُ الْمَذْمُومُ مِنَ الدُّنْيَا

وإذا سمعت بدم الدنيا، فاعلم أنه ليس راجعاً إلى زمانها الذي هو الليل والنهار المتعاقبان إلى قيام الساعة، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَهَا ﴿خَلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكَرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

وليس الظم راجعاً إلى مكانها وهو الأرض، ولا إلى ما أنبتة الله فيها من الشجر والزرع.

فإن ذلك كله من نعم الله على عباده لما لهم فيه من المنافع والمصالح والاعتبار والاستدلال بذلك على وحدانية الله وقدرته وعظمته وحكمته ورحمته بعباده.

قال جل وعلا: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، وقال

تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠].

وإنما المذموم أفعال بني آدم: من المعاصي الكبائر والصغائر، كالشرك، وترك الصلاة، وترك الزكاة، والكذب على الله ورسوله، أو كراهة ما أنزل الله، أو قتل نفس بغير حق، أو ظلم، أو شهادة زور، أو هلو واستعمال آلاته، ونحو ذلك، مما يُنافي التوحيد أصالةً، أو يُنافي كماله الواجب أو المستحب. (1)

قلت: وجماع هذا كله قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا

فِيهَا، إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ، وَمَا وَالَاهُ، وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ». (2)

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ (3): «فَكُلُّ عَمَلٍ يَعْمَلُهُ الْعَبْدُ وَلَا يَكُونُ طَاعَةً لِلَّهِ،

وَعِبَادَةً، وَعَمَلًا صَالِحًا، فَهُوَ بَاطِلٌ، فَإِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا مَا كَانَ لِلَّهِ، وَإِنْ نَالَ بِذَلِكَ الْعَمَلِ رِئَاسَةً وَمَالًا، فَغَايَةُ الْمُتَرَتِّسِ أَنْ يَكُونَ كَفِرْعَوْنَ، وَغَايَةُ

1- انظر: «إيقاظ أولي الهمم العالية» (ص 24).

2- رواه الترمذي (2322)، وابن ماجه (4112)، وحسنه ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص 169)، والألباني في «صحيح الترغيب» (3244).

3- «مختصر الفتاوى المصرية» (1/182). وانظر: «مفتاح دار السعادة» (1/70).

المُتَمَوِّلِ أَنْ يَكُونَ كَقَارُونَ. وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ فِي «سورة القصص» مِنْ قِصَّةِ فِرْعَوْنَ وَقَارُونَ مَا فِيهِ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ». انتهى.

### حقيقة مصيبة الدين

النوع الثاني من المصائب هو المصيبة في الدين، وهي راجعة إلى أمرين:

مصيبة من جهة الشهوات،

أو مصيبة من جهة الشبهات.

فمن أُصِيبَ بِأَحَدِهِمَا أَوْ كِلَيْهِمَا فَقَدْ هَلَكَ، وَلَنْ يَنْفَعَهُ مَا أَصَابَ مِنَ الدُّنْيَا أَوْ مَلَكَ، وَإِنْ كَانَ جِنْسَ الشَّبْهَةِ أَعْظَمَ مِنْ جِنْسِ الشَّهْوَةِ.

وَمَنْ سَلِمَ مِنْهُمَا فَقَدْ سَلِمَ فِي الدَّارَيْنِ، وَحَازَ الْفَوْزَ بِلا شَكِّ وَلَا مَيْنٍ، وَكَانَ قَلْبُهُ

سَلِيمًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:

٨٨ - ٨٩]. والسليم هنا هو الذي سَلِمَ مِنْ مَرَضِي الشَّهْوَةِ وَالشَّبْهَةِ، وَيَدْخُلُ فِيهِ الشَّرْكُ

الذي هو أعظم الذنوب، وأقبح العيوب.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ<sup>(1)</sup>: «وَجَمَاعٌ ذَلِكَ هُوَ سَلَامَةٌ<sup>(2)</sup> الْقَلْبِ عَنِ الْإِعْتِقَادَاتِ

الْفَاسِدَةِ، وَالْإِرَادَاتِ الْفَاسِدَةِ، وَمَا يَتَّبِعُ ذَلِكَ». انتهى.

1- انظر: «الفتاوى» (337 / 10)، بتصرف. وتفصيل هذه العبارة عند ابن القيم في مواضع من كتبه منها:

أول «إغاثة اللهفان» (7 / 1)، و«الجواب الكافي» (ص 122) ...، ونحوه في «رسائل ابن رجب» (65 / 3).

2- وهذا هو اللفظ الذي اخترته في هذه الرسالة: «تسليية المؤمنيين بهوان مصيبة الدنيا عند سلامة الدين».

ولهذا، كانت الإمامة في الدين لا تُنال إلا بالسلامة من أدران الشهوة، وشكوك الشبهة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

فبالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين، إذ في الجمع بينهما سعادة العبد، وبفقدهما يفقد العبد سعادته، فإنَّ القلب تطرُّقه طوارقُ الشَّهَوَاتِ المُخَالَفَةِ لِأَمْرِ اللَّهِ، وَطَوَارِقُ الشُّبُهَاتِ المُخَالَفَةِ لِخَبْرِهِ، فبالصبر يدفع الشَّهَوَاتِ، وباليقين يدفع الشُّبُهَاتِ، فَإِنَّ الشَّهْوَةَ وَالشُّبُهَةَ مُضَادَّتَانِ لِلدِّينِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ، فَلَا يَنْجُو مِنْ عَذَابِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ دَفَعَ شَهْوَاتِهِ بِالصَّبْرِ وَشُبُهَاتِهِ بِالْيَقِينِ، وَهَذَا أَحَبُّ سُبْحَانَهُ عَنْ حُبُوطِ أَعْمَالِ أَهْلِ الشَّهَوَاتِ وَالشُّبُهَاتِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِمَخْلَقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِمَخْلَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِمَخْلَقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة: ٦٩].

فهذا الاستمتاع بالخلاق هو استمتاعهم بنصيبتهم من الشَّهَوَاتِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾، وَهَذَا هُوَ الْخَوْضُ بِالْبَاطِلِ فِي دِينِ اللَّهِ، وَهُوَ خَوْضُ أَهْلِ الشُّبُهَاتِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [التوبة: ٦٩]، فَعَلَّقَ سُبْحَانَهُ حُبُوطَ الْأَعْمَالِ وَالْخُسْرَانَ بِاتِّبَاعِ

الشّهوات الّذي هو الإستمتاع بالخلاق، واتباع الشّبّهات الّذي هو الخوض  
بالباطل<sup>(1)</sup>.

ونحوه قول الله جلّ جلاله مثنياً على أنبيائه: ﴿وَأَذْكُرْ عِندَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي  
الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص: ٤٥]، فالأيدي: القوى والعزائم في ذات الله، والأبصار:  
البصائر في أمر الله.<sup>(2)</sup>

ولا سبيل لتحصيل السلامة من الشهوة والشبهة إلا بالعلم النافع الذي يتبعه  
عمل صالح، ولهذا قال العلامة ابن سعدي رَحِمَهُ اللهُ في مطلع «منظومته في القواعد»:  
اعلم هُديتَ أنَّ أفضلَ المِنَّةِ علمٌ يُزيلُ الشَّكَّ عنكَ والدرنُ  
فالشك: تورثه الشبهات، والدرنُ أي: الوسخ: تورثه الشهوات.

ومصائب الشهوات والشبهات هي الآفة الكبرى، والرزية العظمى، لأنها تُصيبُ  
المرءَ في دينه الذي هو أعلى ما يملك.

قال العلامة السفاريني رَحِمَهُ اللهُ<sup>(3)</sup>: «المصائب تتفاوت، فأعظمها المصيبة في الدين،  
نعوذ بالله من ذلك، فإنها أعظم من كل مصيبة يصاب بها الإنسان». انتهى.

والأمراض - كالمصائب - نوعان أيضاً:

أمراض مادية،

1- «رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه» (ص 16)، بتصرف.

2- انظر: «إغاثة اللهفان» (2/ 167).

3- «غذاء الألباب» (2/ 334).

وأمرض روحية.

وهذه الأمراض - أي: الروحية - هي التي بُعثَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعِلاجِها بالأساس، وأما طب الأبدان: فجاء من تكميل شريعته ومقصودا لغيره بحيث إنما يستعمل عند الحاجة إليه، فإذا قدر على الاستغناء عنه كان صرفُ الهِمَمِ والقوى إلى علاج القلوب والأرواح، وحفظ صحتها، ودفع أسقامها، وحميتها مما يفسدها هو المقصود بالقصد الأول، وإصلاح البدن بدون إصلاح القلب لا ينفع، وفساد البدن مع إصلاح القلب مضرته يسيرة جدا، وهي مضرّة زائلة تعقبها المنفعة الدائمة التامة.<sup>(1)</sup>

قال السفاريني رَحِمَهُ اللهُ<sup>(2)</sup>: «ثم بعد المصيبة في الدين المصيبة في النفس، ثم في الأهل، وهي مقاربة المصيبة في النفس، ثم المصيبة في المال<sup>(3)</sup>، وهذه كالتي قبلها تتفاوت بحسب فخامة المصاب فيه وحقارته، فأعظمُها أنفُسُها، إلى أن تصل إلى شِسع النعل<sup>(4)</sup>، والشوكة، فإنهما في غاية الحِقارة، فإنَّ حَرَّ المصيبة تنال من القلب بقدر ما فقَد وتألَّم، وشِسعُ النعل في غاية الحِسَّة». انتهى.

1- انظر: «زاد المعاد» (4/ 22).

2- «غذاء الألباب» (2/ 334).

3- قلت: وكانَّ السفاريني -تَبَعًا لِلْمَنبِجِي- رَتَّبَ خطر المصائب بحسب مقاصد الشريعة الكبرى، التي تسمى المقاصد الضرورية، وهي: حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسل (أو العرض)، والمال.

وقد تكلمت عنها، وعن أدلتها، وترتيبها من جهة الأهمية، في كتابي: «مقصد حفظ النسل».

4- وهو ما يُمَسِّكُ النعلَ بأصابع القدم.

يُوضِّحُه قولُ المُنْبِجِي رَحِمَهُ اللهُ<sup>(1)</sup>: «أما المالُ فيُخْلِفُه اللهُ تعالى، وهو فِدَاءُ الأَنْفُسِ، والنَّفْسُ فِدَاءُ الدِّينِ، والدِّينُ لا فِدَاءَ له». انتهى.

### أعظم المصائب: مصيبة الدين

تقدّم في الفصل الذي مضى بيان عِظَمِ مصيبة الدين بالنسبة لمِخَنِ الدنيا – وإن جَلَّتْ –، إذُ المصيبةُ في الدين هي نِهَايَةُ الخُسْرَانِ الذي لا رِبْحَ معه، والحِرْمَانِ الذي لا طمَعَ معه.<sup>(2)</sup>

وسأذكر في هذا الفصل بعض الدلائل على هذا من نصوص الوحيين وكلام أهل العلم رحمهم الله أحياءً وأمواتاً.

قال الله جَلَّ جَلَالُهُ في مُحْكَمِ تنزيهه مبيِّناً عقوبة المُعْرِضِينَ عن التَّحَاكُمِ إليه، الراضين بحكم غيره من الخلق: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [النساء: ٦٢]، والمصيبة هنا فضيحتهم إذا أنزل القرآن بحالهم، ولا ريب أن هذا أعظمُ المصيبة والإضرار، فالمصائب التي تصيبهم بما قدمت أيديهم في أبدانهم وقلوبهم وأديانهم بسبب مخالفة الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أعظمُها مصائب القلب والدين، فيرى المعروف منكراً، والهدى ضلالاً، والرشاد غيياً، والحق باطلاً، والصلاح فساداً، وهذا

1- «تسليّة أهل المصائب» (ص 19).

2- انظر: «تسليّة أهل المصائب» (ص 17).

من المصيبة التي أصيب بها في قلبه، وهو الطبع الذي أوجبه مخالفة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتحكيم غيره.<sup>(1)</sup>

### آثار الذنوب كثيرة وأعظمها العقاب في الدين

ويدخل في هذا كلُّ النصوص التي جاء فيها عقاب من خالف أمر الله عقاباً دينياً،  
ومن ذلك:<sup>(2)</sup>

فساد القلب، والطبع عليه،  
الدخول تحت لعنة الله ولعنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،  
تضعف القلب، وتضعف فيه تعظيم الرب سُبحَانَهُ وَتَعَالَى،  
تلقي الرعب والخوف في القلب،  
تعمي القلب والبصيرة،  
توجب القطيعة بين العبد وربه،  
تُنسي العبد ربه ونفسه،

1- انظر: «تيسير العزيز الحميد» (ص 483)، ونسبه لابن القيم. ولكنني لم أجده بهذه الصيغة فيما وقفت عليه من كتبه، مع تكرار البحث في مجموع مؤلفاته في «المكتبة الشاملة».  
وعزاه محقق الكتاب (ط. دار الصميعي) إلى «مختصر الصواعق» (ص 451)، و«مدارج السالكين» (1/353)، بنحوه.

2- انظر: «الجواب الكافي» لابن القيم، إذ يُعتبر من أحسن من صنّف في آثار الذنوب على أصحابها في المتأخرين رَحْمَةُ اللَّهِ.

تورثُ غيرها من المعاصي والآثام، لأنّ الذنوب موارِيث... إلى آخر تلك الآثار السيئة الموجبة للهلاك في الدنيا، والخسران في الآخرة.

قال القرافي رَحِمَهُ اللهُ<sup>(1)</sup>: «واللهُ تعالى يعاقب على الذنب بأحد ثلاثة أشياء:

أحدها: المؤلّات كالنار وغيرها، وهذا هو الأمر الغالب في ذلك.

وثانيها: تيسير المعصية في شيء آخر فيجتمع على العاصي عقوبتان، كقوله تعالى:

﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾﴾ [الليل: ٨ - ٩]، فجعل العُسرَى مُسَبِّبَةً عن

المعاصي المتقدمة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُوا عَلَىٰ أَدْبُرِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُمْ

الهُدَىٰ ۗ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ

اللهُ ﴿[محمد: ٢٥ - ٢٦] الآية، فجعل سبحانه الرِّدَّةَ مُسَبِّبَةً عن المعصية المذكورة، لأن

قوله تعالى ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الردة، وقوله ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ قالوا: الباء سببية.

وثالثها: تفويت الطاعات لقوله تعالى: ﴿سَأَصْرَفُ عَنْ ءَايَتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي

الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة:

١٠٨]، وقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١]، ونحو ذلك من الآيات الدالة على

سلب الفلاح والخير بسبب الأوصاف المذمومة المذكورة في تلك الآيات».

ثم ذكر رَحْمَةُ اللَّهِ أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ يُثِيبُ بِأَحَدِ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ:

أحدها: المذات كما في الجنة.

وثانيها: تيسير الطاعات.

وثالثها: تعسير المعاصي.

ثم قال رَحْمَةُ اللَّهِ: «وَفَوَاتُ الطَّاعَةِ مَصِيبَتُهَا أَعْظَمُ الْمَصَائِبِ». انتهى.

ولقد أحسن شيخه العز بن عبد السلام رَحْمَةُ اللَّهِ حِينَ قَالَ<sup>(1)</sup>: «وَكَفَى بِالْغَفْلَةِ عَنِ

اللَّهِ عِقَابًا». انتهى.

وذكر أهل العلم أَنَّ مِنْ مَقَاصِدِ «سُورَةِ التِّينِ» ذِكْرَ قِيَمَةِ الْإِنْسَانِ وَشَرْفِهِ بِدِينِهِ،

وَسُفُولِهِ وَهَوَانِهِ بِتَخَلُّيهِ عَنْهُ، لِذَا أَقْسَمَ بِأَمَاكِنِ نُزُولِ الْوَحْيِ<sup>(2)</sup>.

وهذا فيه بيان أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا قِيَمَةَ لَهُ بِلَا دِينٍ، إِذْ مِنْ أَجَلِهِ خُلِقَ، وَعَلَيْهِ يُجَاسَبُ،

وَبِهِ يَتَفَاوَضُ الْخَلْقُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَقَكُمْ﴾ [الحجرات:

.13].

قال ابن رجب رَحْمَةُ اللَّهِ<sup>(3)</sup>: «مَنْ كَانَ اللَّهُ كَنْزَهُ، فَقَدْ بِالْغِنَى الْأَكْبَرَ». انتهى.

1- «قواعد الأحكام في مصالح الأنام» (2/ 226).

2- «التفسير المختصر» (ص 597).

3- «الرسائل» (1/ 338).

سلامة دينك أهم من كل شيء تملكه، من مال، أو منصب، أو أهل، بل أهم من بقائك على قيد الحياة، ألا ترى قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَإِذَا أَرَدْتَ فِتْنَةً فِي قَوْمٍ فَتَوَفَّنِي غَيْرَ مَفْتُونٍ».(1)

1- رواه أحمد (22109)، والترمذي (3233)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (408). وشرح ابن رجب رَحْمَةُ اللهِ هَذَا الْحَدِيثَ فِي رِسَالَةِ بَعْنَانِ: «اخْتِيَارِ الْأَوَّلَى فِي شَرْحِ حَدِيثِ اخْتِصَامِ الْمَلَأِ الْأَعْلَى». انظر: «رسائل ابن رجب» (4/3-90).

وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ التَّمَسَّ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ، وَمَنْ التَّمَسَّ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ، سَخَطَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَسَخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ»<sup>(1)</sup>.

قال العلامة سليمان بن عبد الله رَحِمَهُ اللهُ<sup>(2)</sup>: «وفي الحديث عقوبة من خاف الناس وآثر رضاهم على رضى الله، وأن العقوبة قد تكون في الدين، عياداً بالله من ذلك، فإن المصيبة في الأديان أعظم من المصيبة في الأموال والأبدان.

وفيه: شدة الخوف على عقوبات الذنوب، لا سيما في الدين، فإن كثيراً من الناس يفعل المعاصي ويستهيئ ولا يرى أثراً لعقوبتها، ولا يدري المسكينُ بماذا أصيب، فقد تكون عقوبته في قلبه، كما قال تعالى: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [التوبة: ٧٧].

اللهم إنا نعوذ برضاك من سخطك، وبعفوك من عقوبتك، وبك منك، لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك». انتهى.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ<sup>(3)</sup>: «مَا ضُرِبَ عَبْدٌ بِعُقُوبَةِ أَعْظَمَ مِنْ قَسْوَةِ الْقَلْبِ». انتهى. فمهما قست الحياة، فإن قساوة القلب من أعظم المصيبات، ولهذا جعلها الله عقوبة لأعدائه فقال: ﴿ فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ لَعْنَهُمْ لَعَنَّا قُلُوبَهُمْ قَسِيَةً ﴾ [المائدة:

1- رواه ابن حبان في «صحيحه» (276)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (2250).

2- «تيسير العزيز الحميد» (426).

3- «الفوائد» (ص 97). ولا بن رجب رَحِمَهُ اللهُ رسالة نافلة بعنوان: «ذم قسوة القلب».

[١٣]، أي: غليظة، يابسةً عن الإيمان بي، والتوفيق لطاعتي، لا تجدي فيها المواعظ، ولا تنفعها الآيات والنذر، فلا يرغبها تشويق، ولا يزعجها تخويف، وهذا من أعظم العقوبات على العبد، أن يكون القلب بهذه الصفة التي لا يفيد الهدى والخير إلا شراً.<sup>(1)</sup>

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ<sup>(2)</sup>: «ومهما أُصِيبَ المؤمنُ في شيء من دنياه، فإن ذلك ليس بشيء عند سلامة دينه، الذي هو عِصْمَةٌ أمره في دنياه وأخراه». انتهى.

وما أجمل قول البُستي رَحِمَهُ اللهُ في «نونية الحكم»:

وَكُلُّ كَسْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَجْبُرُهُ وَمَا لِكَسْرِ قَنَاةِ الدِّينِ جُبْرَانُ

وقد أوضح هذا المعنى القاضي شريح رَحِمَهُ اللهُ<sup>(3)</sup> لما قال: «إني لأُصابُ المصيبة

فأحمد الله عليها أربع مرات:

أحمد إذ لم يكن أعظم منها،

وأحمد إذ رزقني الصبر عليها،

وأحمد إذ وفقني للاسترجاع لما أرجو من الثواب،

وأحمد إذ لم يجعلها في ديني».

1- انظر: «تفسير السعدي» (ص 225)، وذكر الطبري قولاً آخر في «جامع البيان» (10/127).

2- «الضياء اللامع» (ص 118).

3- «سير أعلام النبلاء» (4/105)، للذهبي رَحِمَهُ اللهُ.

مُصِيبَةُ الدِّينِ أَقْوَى مِنْ مُصِيبَتِنَا      فِي الْأَهْلِ وَالنَّفْسِ وَالْأَمْوَالِ وَالْوَالِدِ  
فَالْكُلُّ يَفْنَى وَلَا تَفْنَى عَوَاقِبُهُ      وَالدِّينُ إِنْ ضَاعَ فَالْحُسْرَانُ لِلْأَبَدِ<sup>(1)</sup>

قال ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ<sup>(2)</sup>: «والعقوبة أنواع كثيرة:

منها: ما يتعلق بالدين، وهي أشدها، لأن العقوبات الحسية قد يتنبه لها الإنسان، أما هذه، فلا يتنبه لها إلا من وفقه الله، وذلك كما لو خفت المعصية في نظر العاصي، فهذه عقوبة دينية تجعله يستهين بها، وكذلك التهاون بترك الواجب، وعدم الغيرة على حرمت الله، وعدم القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كل ذلك من المصائب، ودليله قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَعَلِمَ أَنَّنَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩].

ومنها: العقوبة بالنفس، وذلك كالأضرار العضوية والنفسية.

ومنها: العقوبة بالأهل، كفقدانهم، أو أمراض تصيبهم.

ومنها: العقوبة بالمال، كنقصه أو تلفه وغير ذلك» انتهى.

ولذا قيل: <sup>(3)</sup>

أَبْنِيَّ إِنَّ مِنَ الرَّجَالِ بَهِيمَةً      فِي صُورَةِ الرَّجُلِ السَّمِيعِ الْمُبْصِرِ  
فَطِنٌ بِكُلِّ مُصِيبَةٍ فِي مَالِهِ      وَإِذَا يُصَابُ بِدِينِهِ لَمْ يَشْعُرْ

1- من شعر شيخنا د. بدر بن علي العتيبي وفقه الله، وكان قد نشر هذه الأبيات في حسابه على «تويتر».

2- «القول المفيد» (2/ 117).

3- انظر: «روضة العقلاء» (ص 122)، و«بهجة المجالس» (ص 169). ونسبها الخطيب البغدادي رَحِمَهُ اللهُ

في «تاريخ بغداد» (18/ 90) إلى ابن بطة العكبري.

قال العلامة السفاريني رَحِمَهُ اللهُ<sup>(1)</sup>: « فإذا رأيت إنسانا لا يبالي بما أصابه في دينه من ارتكاب الذنوب والخطايا وفوات الجمعة والجماعة وأوقات الطاعات فاعلم أنه ميت لا يحس بألم المصيبة، ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾ [الروم: ٥٢]. انتهى.

قلت: وهؤلاء داخلون في قول الله جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ [الروم: ٧].

قال ابن خالويه رَحِمَهُ اللهُ<sup>(2)</sup>: «ما كان أعرفهم بسياسة دنياهم، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا. ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ﴾ أي عن العلم بها والعمل لها ﴿هُمَّ غَفْلُونَ﴾». انتهى.

فإن النفوس إذا لم تتوقع حياة الآخرة ودوامها كانت آلام الدنيا ومتاعبها لا تطاق، ولا تجد لاحتماها سبيلا، لأنها ما قبلت تلك الآلام واحتملتها إلا لأنها تُوَقِّنُ بِسَعَادَةٍ أُخْرَى وراء ما تُقَاسِي من المتاعب في هذه الحياة.<sup>(3)</sup>

قلت: وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُبْغِضُ كُلَّ عَالِمٍ بِالدُّنْيَا جَاهِلٍ بِالْآخِرَةِ». (4)

قال بعض الحكماء: «مَنْ تَهَاوَنَ بِالدِّينِ هَانَ، وَمَنْ غَالَبَ الْحَقَّ لَانَ». (5)

وروي في الحديث: «وَإِنَّ الْمَسْلُوبَ مَن سُلِبَ دِينُهُ». (6)

1- «غذاء الألباب» (2/334).

2- نقلا عن «تفسير القرطبي» (8/14).

3- انظر: «تفسير المراغي» (21/29).

4- «صحيح الجامع» (1879). وانظر: «الصحيحة» (195)، وكلام الألباني على معنى الحديث.

5- «أدب الدنيا والدين» (ص 103).

6- وإسناده ضعيف. انظر: «المطالب العالية» (3134).

قال الماوردي رَحِمَهُ اللهُ متكلِّماً عن الذي لا يُبالي بنقصان دينه وعباداته<sup>(1)</sup>: «ثم لعله (أي: هذا المُقَصِّر) لا يفطن لشأنه، ولا يشعر بخُسرانه، وقد خَسِرَ الدنيا والآخرة، وَيَفْطِنُ للسير من ماله إن وَهَى واختل». انتهى.

أرى رجالاً بأذنى الدين قد قَنَعُوا      ولا أراهم رُضُوا في العيش بالدُّونِ  
فاستغن بالله عن دنيا الملوك كما      استغنَى الملوكُ بدنياهم عن الدينِ  
وروي أن العلاء الحضرميَّ وفد على منذر بن ساوي، فقال له: «يا منذر! إنك  
عظيمُ العقل في الدنيا، فلا تَصْغِرَنَّ عن الآخرة»<sup>(2)</sup>.

شرح حديث: «ولا تجعل مصيبتنا في ديننا»

بعد هذا البيان يظهر لنا جلياً معنى قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في دعائه الجامع  
الذي كان قلماً يقوم من مجلسٍ حتى يدعو به، وهو قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «اللَّهُمَّ اقْسِمْ  
لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يُحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتِكَ، وَمِنْ  
الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا، وَمَتَّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا،  
وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا، وَاجْعَلْ ثَارَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمْنَا، وَانصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا، وَلَا تَجْعَلْ

1- نفس المصدر (ص 103).

2- انظر: «الأعمال الكاملة لمحمد الخضر حسين رَحِمَهُ اللهُ» (5 / 225).

مُصِيبَتِنَا فِي دِينِنَا، وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا».<sup>(1)</sup>

قال الطيبي رَحِمَهُ اللهُ<sup>(2)</sup>: «(ولا تجعل مصيبتنا في ديننا): ولا تصبنا بما ينقص ديننا من أكل الحرام واعتقاد سوء، أو فترّة في العبادة. وقوله: (ولا تجعل الدنيا أكبر همنا): فيه أن قليلاً من الهم لا بد منه في أمر المعاش المرخص، بل مُسْتَحَبٌّ». انتهى.

وقال القاري: «(ولا مبلغ علمنا) أي: غاية علمنا، فلا نعلم ولا نتفكر إلا في أمور الدنيا، بل اجعلنا متفكرين في أحوال الآخرة، متفحصين من العلوم التي تتعلق بالله تعالى وبالدار الآخرة».<sup>(3)</sup>

قلت: وفي هذا الحديث فوائد:

منها: أن اليقين سبب في تهوين المصائب، ومن ذلك معرفة أنه لا مردّ لقضاء الله، ولا مُعَقَّبَ حُكْمِهِ، وأنه لا يصيب العبد إلا ما كتب الله عليه، وأن ما قدره الله لا يخلو من حكمة ومصلحة، كما مرّ بيانه بالتفصيل.

ومنها: أن مصيبة الدين هي البلية الكبرى، والرزية العظمى، وهي أعظم المصيبتين، وأشدّ النبكتين، وهذا لبُّ هذه الرسالة.

1- رواه الترمذي (3502)، والحاكم في «المستدرک» (1934)، بلفظ قريب، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (1268).

2- «شرح المشكاة» (6/1928)، بتصرف يسير.

3- «مرقاة المفاتيح» (5/1728)، بتصرف يسير.

ومنها: أَنَّ الآخرة هي هَمُّ المؤمن الأعظم، ومطلبه الأكرم، بخلاف مَنْ جعل الدنيا قِبلة فؤاده، ولم يُبالِ بآخِرته ومَعاده.

قال شيخنا عبد الله العنقري -نفع الله به-<sup>(1)</sup>: «مصيبة الدين أشد ما يُصابُ به

العبد، ومن دلائلها أن تكون الدنيا أكبر هَمِّه، فمهما أُصيب دينُه لم يُبالِ». انتهى.

مِن كُلِّ شَيْءٍ إِذَا ضَيَّعْتَهُ عَوْضٌ وَمَا مِنَ اللَّهِ إِنْ ضَيَّعْتَهُ عَوْضٌ

قال بعضهم: «لكل أحد في الله عوض من كل أحد، وليس لأحد من الله عوض

بأحد».<sup>(2)</sup>

ومنها: أَنَّ مصيبة الدين، والانشغال بالدنيا عن طاعة رب العلمين، سبب لتسليط

الأعداء علينا من الداخل والخارج.<sup>(3)</sup>

1- من تغريدة له، على حسابه في «تويتر».

2- «الآداب الشرعية» (2/ 178).

3- وقد فصّلت الكلام على آثار الذنوب على العباد، وأنها سبب في فساد أحوال البلاد في كتابي: «واسع المنّة»

تحت عنوان: «صَلَاحُ الرَّاعِي من صَلَاحِ الرَّعِيَّة».

## أعظم المصائب في الدنيا: موت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْمَصَائِبِ الَّتِي حَلَّتْ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ مَوْتُ نَبِيِّهَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذِ الْمَصَابُ بِهِ أَعْظَمُ مُصَابٍ، وَقَدُّهُ أَشَدُّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ مِنْ فَقْدِ الْوَالِدِ وَالْوَالِدِ وَسَائِرِ الْأَحْبَابِ، وَكَيْفَ لَا وَقَدْ تَأَثَّرَتْ بِفِرَاقِهِ حَتَّى الْأَخْشَابُ! (1) اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ.

قال أبو عمر ابن عبد البر رَحِمَهُ اللهُ (2): «وَنِعَمَ الْعَزَاءُ فِيهِ لِأُمَّتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَا أُصِيبَ الْمُسْلِمُونَ بَعْدَهُ بِمِثْلِ الْمُصِيبَةِ بِهِ، وَفِيهِ الْعَزَاءُ وَالسَّلْوَى، وَأَيُّ مُصِيبَةٍ أَعْظَمُ مِنْ مُصِيبَةٍ مَنْ انْقَطَعَ بِمَوْتِهِ وَحَيُّ السَّمَاءِ، وَمَنْ لَا عَوْصَ مِنْهُ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، وَقَضَاءً عَلَى الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، وَهَجَاً لِلدِّينِ». انتهى.

وَصَدَقَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

وَمَا فَقَدَ الْمَاضُونَ مِثْلَ مُحَمَّدٍ وَلَا مِثْلَهُ حَتَّى الْقِيَامَةِ يُفْقَدُ

1- أُشِيرُ إِلَى الْحَدِيثِ الْمَشْهُورِ فِي قِصَّةِ حَنِينِ الْجَذَعِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ (3583) عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ إِلَى جِذْعٍ، فَلَمَّا اتَّخَذَ الْمُنْبِرَ تَحَوَّلَ إِلَيْهِ فَحَنَّ الْجِذْعُ فَأَتَاهُ فَمَسَحَ يَدَهُ عَلَيْهِ». وعند ابن ماجه (1415): «فَأَحْتَضَنَهُ، فَسَكَنَ»، ثم قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ لَمْ أَحْتَضِنُهُ لَحَنَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

وروى ابن حبان هذا الحديث في «صحيحه» (6507) ثم ذكر أن الحسن كان إذا حدث بهذا الحديث بكى، ثم قال: «يا عباد الله الخشبة تحنُّ إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شوقاً إليه لمكانه من الله، فأنتم أحقُّ أن تشتاقوا إلى لقاءه!»

2- «الاستذكار» (3/80).

فعن ابن عباس وسابط الجُمحي رَضِيَ اللهُ عَنْهُمُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

«إِذَا أَصَابَ أَحَدَكُمْ مُصِيبَةٌ فَلْيَذْكُرْ مُصِيبَتَهُ بِهَا فَإِنَّهَا مِنْ أَعْظَمِ الْمَصَائِبِ» (1).

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللهُ (2): «وصدق صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأنَّ المُصِيبَةَ به أَعْظَمُ من

كل مُصِيبَةٍ يُصَابُ بها المسلمُ بعده إلى يوم القيامة؛ انقطع الوحي، وماتت النبوة، وكان

أَوَّلُ ظُهُورِ الشَّرِّ بارتداد العرب وغير ذلك، وكان أَوَّلُ انْقِطَاعِ الخَيْرِ وَأَوَّلُ نُقْصَانِهِ».

ثم نقل أبيات أبي العتاهية رَحِمَهُ اللهُ:

واعلَمُ بأنَّ المَرءَ غَيْرُ مُخَلِّدٍ	اصْبِرْ لِكُلِّ مُصِيبَةٍ وَتَجَلِّدِ
وَتَرَى المَنِيَّةَ لِلْعِبَادِ بِمَرَّ صَدِ	أَوْ مَا تَرَى أَنَّ المَصَائِبَ جَمَّةٌ
هَذَا سَبِيلٌ لَسْتُ فِيهِ بِأَوْحِدِ	مَنْ لَمْ يُصَبْ مِمَّنْ تَرَى بِمُصِيبَةٍ؟
فاجْعَلْ مُصَابِكَ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ	وَإِذَا ذَكَرْتَ مُحَمَّدًا وَمُصَابَهُ

ثم ساق بسنده إلى ابن القاسم بن محمد أنه قال: كان أبو بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِذَا

عَزَى عن ميت قال لوليه: «ليس مع العزاء مُصِيبَةٌ، ولا مع الجَزَعِ فائدة، والموتُ

أَهْوَنُ ما بعده وأشدُّ ما قبله؛ اذْكُرُوا فَقَدْ نَبِيَّكُمْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَهُونُ عِنْدَكُمْ

مُصِيبَتِكُمْ، وَأَعْظَمَ أَجْرَكُمْ». انتهى.

وعن أنسٍ، قَالَ: «لَمَّا كَانَ اليَوْمُ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المَدِينَةَ

أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، فَلَمَّا كَانَ اليَوْمُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، وَمَا نَفَضْنَا عَنِ

النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأَيْدِيَّ حَتَّى أَنْكَرْنَا قُلُوبَنَا» (1).

1- رواه الدارمي (85)، وابن سعد في «الطبقات» (2/ 210)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (1106).

2- «التمهيد» (19/ 322، وما بعدها)، مختصرا.

وَمِنْ شَعْرِ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ الْحَارِثِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَرِثِي رَسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

لَقَدْ عَظَمْتَ مُصِيبَتَنَا وَجَلَلْتَ عَشِيَّةَ قَيْلٍ قَدْ قُبِضَ الرَّسُولُ  
وَأَضْحَتْ أَرْضُنَا مَمَّا عَرَاهَا تَكَادُ بِنَا جَوَانِبُهَا تَمِيلُ  
فَقَدْنَا الْوَحْيَ وَالتَّنْزِيلَ فِينَا يَرُوحُ بِهِ وَيَغْدُو جِبْرَائِيلُ  
وَذَاكَ أَحَقُّ مَا سَأَلْتَ عَلَيْهِ نُفُوسُ النَّاسِ أَوْ كَادَتْ تَسِيلُ

قال السفاريني رحمه الله<sup>(2)</sup>: «وهذه المصيبة في نفس الأمر من أعظم المصائب في

الدين». انتهى.<sup>(3)</sup>

قلت: فمن نظر إلى هذه المصيبة الكبرى هانت عليه أخواتها الصغرى، وتعلم

ذلك: تخيل لحظة أنه قد يعرض عليك رفع ما بك من بلاء على أن يصاب رسول الله

بشوكة - لو كان حياً - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ! لا أظنُّ مسلماً يرضى بأدنى من هذا!

فهذه القصة التي حصلت لصحابي جليل وهو خبيب بن عدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تُعْطِيكَ

فكرةً عمليّةً وتطبيقاً واقعيّاً لمعنى هذا الحديث.

وتذكر - رعاك الله - أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين وُطِيَ في مكة يوماً بعد إسلامه،

حتى شارف على الهلاك، ولم يكن له همٌّ إلا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو يقول:

«ماذا فعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟».

1- رواه ابن ماجه (1631)، وصححه الألباني في «مختصر الشمائل المحمدية» (329).

2- «غذاء الألباب» (2/334).

3- انظر في هذا الموضوع خاصة: «مصيبة موت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأثرها في حياة الأمة»، لحسين العوايشة.

ونحوه ما رُوي مُرسلا في قصة المرأة الأنصارية رَضِيَ اللهُ عَنْهَا التي قُتِلَ أبوها وأخوها وزوجها يومَ أُحُد، وهي - مع هذه المصائب في أقرب الناس لها - تقول: «ما فعل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟»، فلما عَلِمَتْ أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخير، قالت: «كُلُّ مَصِيبَةٍ بَعْدَكَ جَلَلٌ»، أي: تَهُون. (1)

1- انظر نماذج من نواذر الحب والتفاني الذي كان من الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ نُجَاه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟» (ص 167-170)، للندوي رَحِمَهُ اللهُ.

## البكاء على ضياع الدين أعظم من ضياع الطين

وفي ختام هذه الرسالة أحببت أن أنبّه إلى ما هو داخل فيما سبق من كلام، وحاصله أن في المسلمين من يُكثرُ البكاء على ما ضاع من ملك المسلمين، وسقوط دولتهم، وانكسار شوكتهم، وهذا حق ما لم يُجاوز حدّه.

ومجاوزة حدّه قد تكون بأمرين:

الأول: ببث الإحباط في المسلمين، وتوهين صفّهم، والفت في عضدّهم.

والثاني: أن يكون أعظم من البكاء على فساد الدين، ومظاهر الشرك، وانتشار

البدع، ومحادة الله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وإلى هذا أشار ابن عقيل الحنبلي رَحِمَهُ اللهُ بقوله<sup>(1)</sup>: «من عَجِبَ ما نَقَدْتُ مِنْ أحوالِ الناسِ كَثْرَةً ما نَاحُوا على خرابِ الدِّيارِ، وموتِ الأَقاربِ والأَسلافِ، والتَّحَسُّرِ على الأرزاقِ بَدَمَ الزَّمانِ وأهلِهِ، وذكِرِ نَكِدِ العيشِ فيه، وقد رَأَوْا مِنْ انهدامِ الإسلامِ، وشَعَثِ الأديانِ، وموتِ السُّننِ، وظُهورِ البِدَعِ، وارْتِكابِ المعاصيِ، وقَضِّ في الفارغِ الذي لا يُجِدِي، والقَبِيحِ الذي يُوبِقُ ويؤذِي، فلا أَجِدُ مِنْهُمْ مَنْ نَاحَ على دينِهِ، ولا بَكَى على فارِطِ عُمَرِهِ، ولا آسَى على فائِتِ دَهْرِهِ، وما أرى لذلك سببًا إِلَّا قِلَّةَ مُبالِغِهمِ بالأديانِ، وعِظَمَ الدنْيا في عُيونِهِم، ضِدًّا ما كان عليه السَّلَفُ الصَّالِحُ، يَرِضُونَ بالبلاغِ، وَيَنُوحُونَ على الدينِ». انتهى كلامه رَحِمَهُ اللهُ، وهو متين واضح.

-تمت بحمد الله-

1- نقله عنه ابن مفلح المقدسي رَحِمَهُ اللهُ في «الأدب الشرعية» (2/ 244) (3/ 240).

## فهرس الموضوعات

- 1 المقدمة ..... 1**
- 1..... الداعي إلى تأليف الكتاب
- 5 الحياة مبنية على الابتلاء ..... 5**
- 7..... الحياة بين منزلتي الشكر والصبر
- 11 منزلة الصبر من الدين وفوائد الابتلاء للمسلمين ..... 11**
- 12..... عِظْمُ الْأَجْرِ لِمَنْ حَقَّقَ عِبَادَةَ الصَّبْرِ
- 15..... فوائد المِحْنِ والبلايا
- 23..... سؤال الله العافية وعدم التعرض للبلاء
- 29 المصائب نوعان: مصيبة في الدنيا وأخرى في الدين ..... 29**
- 29..... حقيقة مصيبة الدنيا
- 33..... نصوص في ذمّ الدنيا مقارنة بالآخرة
- 36..... الدنيا لا تُدَمُّ بإطلاق
- 38..... القَدْرُ المَذْمُومُ مِنَ الدُّنْيَا
- 40..... حقيقة مصيبة الدين
- 44 أعظم المصائب: مصيبة الدين ..... 44**

- 45 ..... آثار الذنوب كثيرة وأعظمها العقاب في الدين
- 53 ..... شرح حديث: «ولا تجعل مصيبتنا في ديننا»
- 56 ..... **أعظم المصائب في الدنيا: موت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**
- 60 ..... البكاء على ضياع الدين أعظم من ضياع الطين
- 61 ..... **فهرس الموضوعات**